مراقيات

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (2389) السنة التاسعة

الخميس (9) شباط 2012

4

الشهيدة بنت الهدى .. أشهر مفقودة عراقية

عراقيات
من زمن التوهج
العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

نزيهة الدليمي والأحلام المغدورة

فخري كريم

عاشت نزيهة الدليمي، دون ارادة منها، مرحلة تحولات كبرى، جمعت تناقضات عصر ملتبس، مكفوف، متمرد، تداخلت فيه الآمال والخيبات، وبدا احيانا وهو في صعوده،كما لو انه عصر تصفيات وانتقام!

ما ان هلّ، طاوياً قرن الشك والاكتشافات والأفكار العظيمة، القرن التاسع عشر، حتى تناثرت سنواته صعوداً وانحداراً.

كالغليان كان ينفث أعاصير تهد اليقين في الفكر، والعروش في السياسة والاختراعات في العلم، وفي كل الجهات كانت الأنفاس تتقطع وهي تلاحق غير المألوف. وإذا أغرق القرن الجديد نفسه في مواجهات وحروب وثورات، انسلخ العالم، وتفصد إلى عالمين متناقضين، بينهما المسافة التي تفصل بين اليقين والشك، والأمل والخيبة.

عالم يبشر وآخر يتوعد. بشر ينتشرون مثل نعيم في كل الأصقاع، يتنسمون فضاء جنة موعودة على الارض. تقابلهم ارتال شبحية يستجمعون القوى ويتوعدون بالحريق، كانت سنه ولادة نزيهة الدليمي على خط التماس بين الوعد والتوعد، بين الشك واليقين، بين الأمل والخيبة.

فلم يكن قد مضى وقت طويل على انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى، فالحرب الاهلية التي استهدفتها والحصار حولها من كل صوب والاستنزاف بداخلها، كانت كلها قد وهنت وتراخت أطرافها وبدت كما لو انها في حالة استسلام.

لكن شبح المجاعة والأزمات والنذر السوداء كانت تحوم حول العالم، تقارع اليقين بالشك، وتثير هواجس وأمنيات.

ومن فضلات الحرائق ورمادها، وفي زاوية من اقبية البيرة في بافاريا الالمانية، ظهر رجل يزأر ويزمجر ويتهدد العالم حين يمسك بخناقه ويشعل فيه نيران الجحيم. في وقت ما من عام ١٩٢٣ عام ولادة نزيهة الدليمي الفاصل بين عالمين، كان «عقلاء» تلك المرحلة يستهزئون ويسخرون من صورة مجنون يعربد وهو يحمل صليباً معقوفاً، يقدم مشهداً كوميدياً عرفوا من صحفهم المحلية ان اسمه هتلر اختار حانة بيرة في بافاريا ليخطب فيها ويهدد العالم منها. وكان ان تحققت نبوءته بعد سنوات وجر العالم الى ابشع جريمة في التأريخ الحديث، حيث ضاعت سخرية «العقلاء» في أتون مكابداتهم، واوهامهم وسذاجة تصوراتهم! يومذاك لم تنتبه نزيهة دون شك لأنها كانت تسبح في فضاء الله تنتظر الانبثاق المبهر، إن زئير حانة البيرة وعربدة صاحبها سرعان ما سيلوع حياة شعبها كما ستعيش تالياً مآسيها كما شاء لها الحظ، اذ لم تكن هي حتى بعد ان كبرت وحان حراكها قادرة على ان تتصور وطنها نفسه وقد أصبح أسيراً شبيهاً بذاك المعتوه متفرداً مختلاً مثل هتلر طلع عليه من قمامة أزقة التشرد وحثالات الجريمة.

قد تكون الدكتورة عقدت مقاربة مضنية بين عام ولادتها في ٢٩.١٠.١٩٢٣ وعام بداية انسلاخ الوطن من العراق في ٨ شباط ١٩٦٣!

الأمل والبشارة

شهد عام ١٩٢٣ كما علق في ذاكرتها من حوادث التاريخ، صعود الامل والبشارة، بتقدم انساني في الشرق نحو مشارف عدالة لا تضني من انهكهم الكدح والعطاء، تقيهم من عسف الاستغلال وعنت العبودية الطبقية، وتفتح لهم كوة مضيئة في مسيرة البشرية نحو الانعتاق والحرية والمساواة.

كان ذلك الامل يتدفق بقوة المثل والإلهام، من روسيا التي كسر مستعبدوها المستضعفون، رتابة اصطفاف بني البشر في ثنائية منتج القيمة وسارقها، وخرافة ابدية العلاقة بينهما باعتبارها نهاية التاريخ.

والمصادفة السعيدة، التي كان لها ان تسم ولادة نزيهة ايضاً، ويسري في عروقها ويلازم حياتها وهي تتفتح وتنضج، انبثاق بوادر الأمل، في موطنها، كصدى للأمل الآتي من الشرق البعيد، او كإرهاصات لتململات وجدت طريقها الى رهط من المثقفين العراقيين، وهم يتابعون بشغف وقلق، ملامح دولتهم الوليدة، والأجنبي وهو يتمدد في كنفها، ويقدم نفسه، كفاعل خير ووهاب نعمة، يستكشف بواطن الأرض ليتدفق منها الذهب الأسود، يبني السكك الحديدية، ويرسي بنيان صناعات ومعامل وموانئ وتجارة. لكن هذا الأجنبي اذ يفعل ذلك، كان يتبدى لهؤلاء المغامرين في دروب الفكر والحرية، مجرد قيّم متسلط مستغل، وتتضح لهم معالم دولتهم التي تكونت على خلاف إرادة أهلها، وقد اصبحت منذ ولادتها اسيرة استعباد جديد.

كانت نوى الحركات والرواد الاوائل للوطنية العراقية في طور التكوين: . جماعة الصحيفة ومؤتمر كربلاء والحلقات الماركسية والتجمعات النقابية، وإرهاصات المنظمات المدنية.

وفي ذلك العام، او ما تلاه من أعوام، خرجت أنبل نسائنا وأجرأهن في تحد متفوق على الجهل والتخلف، كاشفات عن إشراقة وجوههن التي لم يخلقها الله الا لتتوحد مع النور والضياء.

لقد اختزل العالم في عام ولادتها، والأعوام التالية، الزمن والمسافات، واخترق ميادين في سائر العلوم، وفي خلايا الدماغ البشري، وفي أعماق النفوس. ورأى الناس معجزات الابتكار والخلق الانساني، وهي تطير، وتخترق الأثير.

وعاش الناس زمن الطائرة، والتلفون، والراديو، والسينما، واستكشاف اسرار النجوم السحيقة البعد، واعماق البحار والمحيطات والغابات، وانحسرت مخاوفهم من الأوبئة التي فتكت بهم طيلة قرون.

في سنوات تكون نزيهة وهي تحبو، كان العراق يزدهر ويزهو بعظمائه.. شعراء أفذاذ، الرصافي والزهاوي والصافي والجواهري، ورهط لا عد له من المبدعين، كتاباً وفنانين وقادة رأي.

كان العراق يومها أسرة واحدة، وإرادة تختزل هموم العراقيين، دون تمييز بين طائفة وعرق ودين وقومية وعقائد وأطياف وتجسد تطلعاتهم، وتعبر عن جسارتهم في المطالبة بالحقوق والأماني المؤجلة.

لكن

عام ١٩٢٣، لم يرهق ذاكرة نزيهة، او لم يكن ذلك ممكناً لأنها لم تكن بعد قد رأت النور... بما حمل من نذر سوداء لعالمنا المتخيل.

وتوالت، مشاهد التطور والنمو والرخاء وهي تترافق مع الانهيار الاقتصادي ونهب المستعمرات، والانحدار نحو هاوية الحرب.

جيل الأمل والخيبات

وفي رحم التناقض الذي كان يتفجر، اكتملت قامة نزيهة الدليمي، وحسمت خيارها، وتلاقت مع تباشير الامل الذي كان يزداد إشعاعه، ويسطع في سماء العالم، كبديل عن الظلم التاريخي، والاستغلال والقهر، والعبودية، والتمييز بين الشعوب والطبقات والأعراق والأديان والألوان والمذاهب والعوالم، عالم الفقراء والمستغلين ومنهوبي الثروات، وعالم التسيد المطلق للآخر المستغل، عالم الشعوب، وعالم المستعبدين، عالم الحكام وعالم المحكومين.

كانت البشرية تغذ سيرها، وفي حمى العمل لتحويل الأمل إلى حياة معيشة لا يتهددها النكوص او الانهيار، بات كل واحد منا أسير أوهامه المركبة. لم نكن يومذاك نحن جيل الأمل والخيبات نميز بين توق الانسان الى الحرية والسعادة، باعتباره حقيقة مطلقة، والطابع النسبي لحركة التقدم نحو الانعتاق الكامل من كل عبودية، فردية كانت ام مجتمعية طبقية. لقد اصبحت هذه «الحقيقة المطلقة» في وعينا المنغلق، وهماً يلغي إرادتنا، وينفي الشك والجدل في فكرنا، ويأسرنا

عراقيات
من زمن التوهج
العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

في وحدانية مغلقة على ما نحن فيه من اغتراب عما يدور حولنا، وما ينبغي أن نكون عليه من دراية وحراك.

كل عالم الأمل، الذي يبشرنا بالجنة على الأرض، ويصبح «العامل الحاسم في تطور البشرية» يتأكل من الداخل، ويتهاوى بنيانه بفعل الإيمان الساذج، والاغتراب عن الحياة، وبفعل الترهل في الفكر والممارسة، والعجز عن رؤية الجديد المتناقض في جوهره، مثل كل الاشياء والمكونات، مثل الطبيعة نفسها التي تتجدد بفعل تناقضاتها.

ولم تكن أوهامنا مجرد أضغاث أحلام، او حلم ليلة صيف. فمعجزات الخلق والابتكار في ذاك العصر خرقت كل ما هو مألوف ومقدس سطحي، فها هو الانسان يطوف في مسار وهمي «حول الكرة الارضية» وها هي آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية تتحرر وها هي الثروات تتراكم في عالم الأغنياء لتصبح الأصفار متاهات عصية على الفهم، وها هي المجاعة والفقر والأوبئة والأمراض الفتاكة تنتشر في مساحات شاسعة في افريقيا وضياع أخرى في العالم.

وتندلق الاختراعات مثل الشلالات... الحاسوب واوتوستردات المعرفة والاتصالات تزدهر مع اتساع رقعة الأوزون وتفشي الجهل والأمية وازدياد البطالة وإبادة ثروات الطبيعة.

وعلى امتداد العقود الستة من القرن العشرين، تتالت المعجزات والمنجزات، واستمر نهوض البشرية، وتعددت مرافئ الأمل، لتجدد أحلامنا بعالم لا ينحدر ولا ينسلخ عن القيم التي أخذت تسمو بالانسان، خالق القيم كلها، عالم تتسيد فيه الشعوب، وتحدد مصائرها بإرادتها الحرة.

يومها كان العراق يغذّ السير، ويندفع غير مبال بالتضحيات، متحصناً بوحدة ارادة الشعب وبالعزم على تقديم نموذجه الخاص للتحرر والتطور.

أخوة ومصالح مشتركة

لقد شهدت الأربعينيات والخمسينيات، نهضة متوهجة، على كل صعيد. فالحركة الوطنية تكاملت بروافدها، القومية العربية، والكردية، والديموقراطية:

الحزب الوطني الديموقراطي، والاستقلال، والتحرر الوطني، والحزب الشيوعي، والحزب الديموقراطي الكردستاني، وحزب البعث العربي الاشتراكي. وسرعان ما انخرطت كلها في جبهة الاتحاد الوطني، الأداة السياسية الشعبية التي مهدت لنجاح ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، التي قادتها حركة الضباط الأحرار. وعلى جبهة العلم والفن والثقافة، تفتحت تيارات ومدارس، وجماعات، فانطلقت الحداثة الشعرية، واغتنت الحركة التشكيلية بقيم لونية وخطوط تجديدية، ابتكر الرواد الكبار لها طرائق وأساليب، ارتقت بها وحررتها من التجريب والتقليد، وعمقت أصالتها، وشددت ملامح عراقيتها بخطوط وتعويذات التراث وألوان دلالات الحاضر.

وشقت السينما مع «سعيد افندي» رحلة مشاهدة الذات المتوثبة إلى الجديد، وهكذا أضاءت الأنوار، المسارح. واحتشدت الجامعات، التي ضمت جيل الشباب المندفع نحو العلم والعمل الوطني، بأبرز المربين المتنورين التواقين إلى تحصين رجالات المستقبل بالمعرفة العلمية، والثقافة الوطنية التقدمية.

وفي المصانع والموانئ والمرافئ والحقول، نهض العمال والفلاحون تجمعهم الأخوة، والمصالح المشتركة، فالفلاح أخو الفلاح، وحليفهم العامل والمثقف «وردة» على صدورهم! والتحمت صفوف هؤلاء جميعاً مع الجيش لتصنع معاً ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. ومع هذه الثورة بدأ شوط دموي، ظل ينزف حتى اليوم.

الثورة المغدورة

ومعها بدأ الصعود ليمتحن الأمل ثم ليتلاشى، مثل سراب...

فقد كتب على الثورة التي جسدت الأمل واليقين وكادت تبلغ ذراها أن تستدير لتأكل أبناءها، ولتنهك قواها ثم لتهمشها، لكي تدفن في نهاية المطاف في لحظة غدر، تحت أعقاب منتهكي شرف العراق عام ١٩٦٣.

ثم ترتقي الجريمة المنظمة لتستولي على السلطة وتتوحّد معها، وتصفي ما تبقى من زمن الانفتاح على الأمل، زمن الرومانسية الثورية!

كان الأمل يتدفق مثل ضياء الفجر، يبشرنا بالجنة على الأرض. وفي دروب التألق البشري هذا، كان الناس لا يهابون التضحية، والموت البطولي، لا الانتحار. وكانت تقاليد التآخي والتعاضد والوحدة. تتجذر في وعي الشعوب عبر القارات، فلا يسقط شهيد في أقاصي الأرض إلا وتتداعى الجموع في اصغر جزيرة، او ريف او حاضرة على امتداد العالم لنصرته حتى في العراق الممتحن بولائه للإنسان، وفي كل هذه الاصقاع كانت ترتفع شارة الشهيد ويجري التنديد بقتلته وإسقاطهم لإعلاء شارته. لم يكن احد من جيل الامل، جيل الرومانسية الثورية ذاك، يعرف، وهو يرفع صورة ذلك الشهيد (المجهول) الآتي من ابعد نقطة مجهولة على خارطة العالم، لون بشرته او جنسه او دينه او حزبه... كان يكفي انه شهيد دافع عن مجد بلاده وكرامة شعبه!

كانت أقدس كلمات ذاك العهد الجميل، ما كان يرمز الى معاني السلم والتضامن والإخاء، وحق التحرر والسيادة والانعتاق من كل اشكال الظلم والاستغلال والتمييز. وفي بلاد الرافدين كان التوحد في بوتقة الأمل، يرص صفوف الجميع. كان القومي والبعثي والوطني ورجل

لقد شهدت الأربعينيات والخمسينيات، نهضة متوهجة، على كل صعيد. فالحركة الوطنية تكاملت بروافدها، القومية العربية، والكردية، والديموقراطية: الحزب الوطني الديموقراطي، والاستقلال، والتحرر الوطني، والحزب الشيوعي، والحزب الديموقراطي الكردستاني

الدين والداعية للسلم يسجن بتهمة الشيوعية والأفكار الهدامة.

وفي منافي الوطنيين، كان السكان يحتضنون المنفيين، لا يعرفون او يسألون عن اديانهم او قومياتهم او مذاهبهم او انتماءاتهم او عقائدهم، ان مجرد التعرف على هويتهم كسجناء رأي سياسيين، كاف لأقصى عطاء وحماية ورعاية.

هكذا كان أهلنا في لواء الرمادي، في هيت وعنه وراوة، وفي الجنوب والوسط، وفي السجون والمعتقلات، حيث كانت «المواطنة العراقية» هوية الكل وهواهم.

في زمن الرومانسية الثورية ذاك، كان التدافع بين الجموع، لتصدر المظاهرات والمواكب والاعتصامات سبيلاً للبطولة والوطنية والإيثار والشهادة وإخلاصاً للذات وللهوية ووقاية للآخرين من الرصاص!

في لحظة غدر تاريخي مريب، بدأ ذلك الزمن، ينسل ويخفت لهيبه، شيئاً فشيئاً.. ثم لينطفئ.

لكنه، ويا للعيب، لم ينطفئ بفعل الصدفة المحضة، بل كان في أساس انطفائه خراب الوعي!

استحالة النكوص

كان صعباً على نزيهة الدليمي، وهي تشرف على الثمانينات، أن تتحمل نكوصاً، او اعترافاً بانطفاء الامل، ولو الى حين. كان مستحيلا عليها، وهي تسترجع شريط ذكرياتها، ومراحل تكونها ونضوجها وانتمائها، وتحول قناعاتها وما اعتراها من ترددات وشكوك إلى إيمان مطلق، ان تتكفئ او ان تقبل بالهزيمة وان بدت مؤقتة، او بالتراجع بالمعايير التاريخية الخادعة.

في مثل عمرها وقد أنهكتها الغربة، بعد أن نال منها تعب الصراع وتقلبات الحياة، لم تلتفت إلى الماضي إلا لتسري عن نفسها، وتستنسخ منها كل ما هو مضيء، جميل، واعد، يتحرك كما لو كان حياة راهنة متدفقة بالحيوية والوعد، ولم يكن من سوّيتها أن تلطخ أي صفحة فيها، كما يفعل الهواة، الذين وضعتهم الصدفة على طريق هواها.

كيف كان لها ان تمعن الفكر، وقد جففت الشيخوخة والإحساس بالنهاية، وما تبقى من بريق الأمل، في أسباب الخراب الذي حلّ في العراق، والضياع الذي يعيش فيه العالم من حولها؟

أي عبء ثقيل مرهق كان عليها أن تتحمله، وهي ترى مظاهر الانهيار تتراكم، وشظايا اليأس تتناثر مثل الطاعون، تصيب من كانت ترى فيهم، مرافئ، يغفو المتعبون خائري القوى عند ضفافها ليسترجعوا قواهم ثم لينهضوا بعد ذلك من الرماد كالعنقاء!

في تلك اللحظات، التي يختلط فيها خيط اليأس بالأمل، أكرمتها الدنيا بانطفاء ذاكرتها! صارت تتحسس الأشياء والحركات والناس بعينيها وبعاطفتها الجياشة. لقد فقدت ذاكرتها... ونسيت مرة واحدة وإلى الأبد ما يشي بالخراب، وربما تناست هي عن عمد الفسحة التي تفصلها عن كل ما هو سابق للحظتها الراهنة، لتظل صافية الإحساس في أعماقها، مثل من ينكر موت معشوقته، ويظل يصلي في محرابها!

هكذا تخطت نزيهة الدليمي، محنة الإحساس بالانكسار والفشل وتبعثر الامل، ولوعة التنصت من بعيد على نداءات الاستغاثة من سبايا الوحشية التي داهمت وطنها، ودعاءات المستباحة دماؤهم على ايدي المجدفين بالقيم، وهم يقذفون بعضهم بعضاً بالكتب المقدسة، ويتراشقون بالآيات الكريمة، ويحرفون معانيها، لتمنحهم حق القتل على الهوية، وتهجير الناس من مرابعهم، والتفريق بينهم، طوائف ومذاهب وأعراقاً وعشائر ومشارب.

المناضلة

لقد اجتازت نزيهة كل مراحل الحرية التي كانت هاجسها منذ ريعان صباها. فاندفعت مثل ربيع الحياة في دروبها، مناضلة كرست عشقها لمثل الحرية والعدالة والمساواة.

وفي دربها الشاق والمتقطع بحواجز الكراهية، كراهية أنظمة الاستبداد و ا لتخلف المتعاقبة، التقطت قضية المرأة، قضيتها هي ككينونة مأسورة، وحولتها مع مجايليها إلى حركة ظلت تكر وتلتحم مع كل القوى الحية في المجتمع لتنتزع بالمعاناة والتضحيات الواعية، حقها في ان تكون حرة الإرادة، متساوية الحقوق، إحدى ضفتي المجتمع بلا أي قيد او تمييز.

غدت الدليمي وهي في ريعان الشباب مضمخة بعز النضال، وهي شيوعية يقينية الهوى، اجتازت محن الحياة، رمزاً للمرأة وهي تتحدى، لتتحرر وتتساوى، واصبحت في لحظة أمل، اول وزيرة عراقية وعربية تحولت من فرد حر، إلى ظاهرة لتجلي الإرادة الجسورة.

المقاربات المضيئة

كما نحن، لم تتشرب ذاكرة نزيهة الدليمي سوى اللحظات والمقاربات المضيئة التي اقترنت بسنة ولادتها وما تلاها من سنوات وعقود.

وربما يكمن في هذا، سر نشوتها، واستعصائها على فقدان الثقة، وسريان الأمل في روحها، حتى أنها خشعت في لحظة فرادة مضيئة في صلاة مناجاة لمثلها العليا! لم تكن هي وحدها، كلية اليقين بما اعتنقت، فقد كان هذا سوية مجايليها ممن تفتحوا على الأمل دون أن يتقبلوا بأي شكل كان تدنيسه بشكوك رثة، لا تصمد أمام الإيمان المطلق.

وغاب عنها وعنا، نحن جيل التوهج، أن هذا التمنع، والإطلاق، وراحة البال، ما هي إلا أساس الخطيئة التي بددت الأمل نفسه، ولو إلى حين!

هل كان ضياعنا يكمن في لحظة اندفاعتنا الأولى غير الواعية، إلى العالم الحسي، عالم الروح والجسد والافتراضات السعيدة حيث تتلقفنا يد «الداية» التي لا تبشبش في آذاننا بغير كلمات الاحتفاء والتمنيات؟

وما الذي في وسعها أن تفعل غير ذلك، وفي نفسها لا تعي، ونحن ننفصل عن مشيمتنا، سر التناقض المحير الذي يظل مضمراً في أعماقنا البعيدة، بين صرخة الولادة، وفرحة الابتداء الإنساني الغامض!

نزيهة الدليمي عادت الى الوطن، وهو يغرق، وتستباح كراماته ويتيه أبناؤه غرباء بلا أوطان، يهيمون في كل مكان مشردين، كتب عليهم الحرمان والبؤس في زمن يعيث فيه الفساد ويستشري، في كل مسامة من جسد دولتنا.

تعود نزيهة الدليمي إلى لحد منزو غريب بعد ان ظلت تتمنى حتى آخر لحظة، ان تكحل عينيها بمرأى وطنها المستباح.

لعل في غفوتها، وقد عادت راضية مرضية، راحة بال لها، تمضي في سرب الأبدية، دون أن ترى الكلاب تنهش لحمنا وتهرس عظامنا وتعلق دم خيرة أبنائنا، وتلف أشلاءنا بمزق وأسمال الطائفية الرثة... يا للعار...!

العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

الشهيدة بنت الهدى .. أشهر مفقودة عراقية

د. صاحب الحكيم

أخت الشهيد السيد محمد باقر الصدر، وكانت تسكن معه في بيت متواضع ليس ملكاً لهم يقع في محلة العمارة في مدينة النجف الأشرف، وهي محلة تضم أكثر بيوت العلماء ...

و لدت في الكاظمية عام ١٩٣٨

وتلقب بـ (بنت الهدى)

مؤلفة وكاتبة وشاعرة وباحثة ومفسرة القرآن،

وكانت تشرف على مدارس الإمام الجواد في الكاظمية والنجف الأشرف.

اعتقلت بعد يوم واحد فقط من اعتقال أخيها الاعتقال الأخير (حيث اعتقل في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم السبت ١٩ جمادي الأول ، ٥ إبريل نيسان ١٩٨٠) واعتقلت في نفس الوقت من يوم الأحد ٦ نيسان ١٩٨٠ وذلك من قبل مدير أمن النجف الأشرف المدعو (أبو سعد) ومعه جلاوزة الأمن منهم المدعو (أبو شيماء) معاونه ، والمدعو يونس الشمري وهو معلم صبيان أصبح مديرا للتعليم (وقد قتل بالانتفاضة الشعبية في شعبان آذار ١٩٩١).

وجاء اعتقالهما بعد أن بقيا في البيت تحت الإقامة الجبرية لمدة تقرب من (١٠) عشرة أشهر انتهت بيوم اعتقالهما، ولا يعرف بالضبط متى بدأ احتجازهما في البيت والذي تعرضا فيه إلى الجوع والعطش ، والإرهاب المستمر .

وأحتجزت أمهما بنت الشيخ عبد الحسين آل ياسين، وهي من العائلة المعروفة في مدينة الكاظمية، والأم هي أخت المرحوم الشيخ محمد رضا آل ياسين العالم المعروف،

واحتجزت، أم جعفر، زوجة الشهيد محمد باقر الصدر، وهي بنت صدر الدين الصدر، وأمها صفية بنت الشيخ حسين القمي من العلماء، واحتجز جعفر محمد باقر بن الشهيد الصدر معهم كذلك.

وبعد اعتقالها في ٦ نيسان، كان أخوها في تلك اللحظة مقيدا في مديرية الأمن العامة ببغداد..

نقلت فورا إلى بغداد تحت حراسة مشددة، ومن ذلك اليوم لا يعرف أحد معرفة حقيقية عن مصيرها،

أما أخوها فقد أعيدت جثته إلى النجف في اليوم التالي.

وتقول خالدة عبد القهار "أمينة سر مكتب صدام التكريتي الخاص"؟؟ بأن الأخ الأكبر لصدام (الذي لم تذكر اسمه) جاء ببنت الهدى إلى القصر الجمهوري بصحبة شخص اسمه (عزيز) فإنهال عليها بالضرب المبرح ..

وكانت الدماء تسيل من رأسها ووجهها،ثم أقتيدت إلى غرفة السكرتير الأول حيث ضربت وعذبت، وقد سمعتها تتلو الآية الشريفة "ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ".

ثم دخل صدام عليها فقامت بتلاوة آية أخرى من القرآن الكريم، مما أثار سخطه بشدة حيث قام بنفسه فضربها..

كما تقول.

وتقول الكاتبة " ثم أوعز صدام التكريتي إلى نائبه عزت الدوري بقتل المفكرة الإسلامية بنت الهدى فخرت هي الأخرى صريعة " ..

ويؤكد شاهد عيان آخر ساهم في عملية الدفن على أن آثار التعذيب والحروق كانت بادية على جسد السيد الصدر وشعره ولحيته، وكذلك الحال مع شقيقته التي أحرق شعر رأسها بشكل كامل،

وظهرت بقع الحروق والجراحات العميقة في جسدها.

وحول هذا الموضوع الحساس هناك روايتان:

الأولى تقول بأن الشقيقين دفنا معا، والذي قام بدفنهما تحت إشراف السلطة، هو دفان نجفي معروف، ثم قامت السلطات بإخراج جثمانيهما . سراً .ودفنهما في مكان آخر مجهول تماماً..

الثانية أن جثمان آمنة الصدر لم يؤت به إلى النجف، ولم يدفن مع جثمان أخيها، ولا يعلم مصيره..

أقول:

ومن هنا يظهر الاختلاف في الأخبار، وعدم وجود دليل قطعي،

أو شاهد أو أكثر على أن آمنة الصدر قد أعدمت.

ولكن إعلام المعارضة العراقية وخاصة الإعلام الإسلامي منه يؤكد وفي جميع مستوياته وقنواته عندما يتحدث عن المحنة فيقول أن آمنة قد أعدمت، ويقرن استشهادها باستشهاد أخيها السيد محمد باقر الصدر وكأنه من المسلمات ؟

وتقول السيدة أم فرقان في كتابها (بطلة النجف الشهيدة العالمة بنت الهدى) حول إعدامها:

".... ولكن نقلت لي إحدى النساء قائلة إن مساعد مدير الأمن (أبو شيماء) صديق إخوتي..

وبعد استشهاد المرجع الشهيد الصدر وشقيقته الفاضلة.. جاء لزيارتنا، وبعد حديث جرى كنت أسمع ما يدور، ووصل الحديث إلى السيد الصدر وأخته..

– سأله أخي قائلا لماذا قتلتم هذه المرأة ما ذنبها؟

– أجاب أبو شيماء قائلاً: نحن لم نقتلها ولكننا أرسلناها إلى بغداد وهم الذين قتلوها..

– ولكن أخبركم إني أسمع عنكم أن فاطمة الزهراء بنت النبي ولها مكانة في نفوس المسلمين وهيبة في قلوب الصحابة وكذلك زينب أخت الحسين (ع)..

إلا إني حينما جاءوا بجثمان العلوية أخذني الفضول لأرى وجهها..

وما أن فتحت القناع حتى سرت في جسمي قشعريرة ، ووقف شعر جسدي هيبة ورهبة مما جعلني أعيد القناع على ذلك الوجه الذي شع نورا قتل به فضولي وشل يداي..

أحسست حينها أنها والله فاطمة أو زينب..

كتبت الآنسة آمنة الصدر في العشرينات من عمرها في مجلة الأضواء (والتي كنت محررا متطوعا ومسؤولا عن الصفحة الطلابية فيها وكان صاحبها الصديق المفقود في زنزانات البعث العراقي الشيخ كاظم الحلفي) عام ١٩٥٩ .

ومن مؤلفاتها: أمرأتان ورجل، الباحثة عن الحقيقة، الفضيلة تنتصر وقد ترجمت هذه الكتب الثلاث إلى اللغة الانكليزية من قبل السيدة ن . سلطان .

ولها كذلك كتب : الخالة الضائعة، وصراع من واقع الحياة، وكلمة ودعوة، ولقاء في المستشفى، وليتني كنت أعلم، ومذكرات الحج،

كما أن لها من الكتب المخطوطة: أيام المحنة

وشرعت بتفسير القرآن الكريم، لكنها لم تكمله، حيث اعتقلت وفقدت بعد ذلك.

لقد طبع كتاب (الباحثة عن الحقيقة) وهي تحت الحجز الإجباري في البيت مع أخيها وعائلته، حيث طلبت من السيدة أم فرقان أن تجلب لها النسخة المطبوعة للإطلاع عليه ، حيث لم تكن قد رأتها مطبوعا قبل هذا بسبب الحجز (أم فرقان بطلة كربلاء)

د.صاحب الحكيم
مقرر حقوق الإنسان في العراق
عضو مجلس حقوق الإنسان الأمم المتحدة جنيف

العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

صبيحة الشيخ داود.. رائدة النهضة النسوية في العراق

ع ميرَ بصري

ساهمت في النهضة النسائية فاشتركت في المؤتمر النسائي الاول الذي عقد ببغداد في تشرين الاول 1932 واختيرت سكرتيرة له والقت محاضرة عن حقوق المرأة المسلمة. واشتركت بعد ذلك في المؤتمر النسائي العربي في بغداد (اذا 1952)، وكانت لها جهود مذكورة في الجمعيات الخيرية كالهلال الاحمر وحماية الاطفال الخ.

اذا ذكرت النهضة النسائية في العراق فلا ريب انها تقترن باسم الاديبة الحقوقية صبيحة الشيخ احمد الداود رائدة الدراسة النسوية العالية ومؤلفة كتاب «اول الطريق».

ولدت صبيحة ابنة احمد الشيخ داود (الذي اصبح فيما بعد وزير الاوقاف) في بغداد سنة ١٩١٢. واقيم في بغداد في شباط ١٩٢٢ المهرجان الادبي المعروف باسم سوق عكاظ، فدعيت وهي فتاة صغيرة الى تمثيل دور الشاعرة الخنساء، فاعتلت ظهر جمل والقت قصيدة. قال امين الريحاني في كتابه «ملوك العرب» (الجزء الثاني): «اقام جماعة المعهد العلمي سوق عكاظ في عاصمة العباسيين، وكانت اول حفلة باهرة فريدة بعد التتويج، حضرها جلالة الملك فيصل، فجلس في فسطاط بين النخيل يسمع الشعراء ينشدون والخطباء يخطبون. وكان قس بن ساعدة في مقدمة الخطباء يمثله احد الصبيان الاذكياء، وكانت الخنساء في طليعة الشعراء تتلو قصيدتها احدى الاوانس المسلمات سافرة صافنة..».

وتخرجت صبيحة الشيخ داود في دار المعلمات الابتدائية فعينت معلمة في المدارس الرسمية في ايلول ١٩٢٧. ثم انتمت الى كلية الحقوق سنة ١٩٣٦، فكانت اول فتاة وطأت اقدامها هذا المعهد. ولما تخرجت بعد اربع سنوات عينت مفتشة في وزارة المعارف (ايلول ١٩٤٠) فمدرسة بدار المعلمات الابتدائية (أيار ١٩٥٠). ونقلت سنة ١٩٥٦ عضوا بمحكمة الاحداث، فظلت فيها حتى اعتزلت الخدمة في كانون الثاني سنة ١٩٧٠، وانصرفت الى ممارسة المحاماة والفت كتاب «تجربتي في قضاء الاحداث».

ساهمت في النهضة النسائية فاشتركت في المؤتمر النسائي الاول الذي عقد ببغداد في تشرين الاول ١٩٣٢ واختيرت سكرتيرة له والقت محاضرة عن حقوق المرأة المسلمة. واشتركت بعد ذلك في المؤتمر النسائي العربي في بغداد (اذا ١٩٥٢)، وكانت لها جهود مذكورة في الجمعيات الخيرية كالهلال الاحمر وحماية الاطفال الخ.

ووضعت كتابها «اول الطريق» الى النهضة النسوية في العراق (١٩٥٨) ، كتب مقدمته منير القاضي، فقال: «وكانت مؤلفة الكتابة الاستاذة صبيحة الشيخ داود، عضو محكمة الاحداث، اول فتاة دخلت كلية في العراق، وهي كلية الحقوق، باستثناء فتاة اخرى دخلت كلية الطب، وكنت انذاك عميد كلية الحقوق. وقد وجدت فيها النشاط والانصراف التام الى الدراسة والتتبع ، فتوسمت فيها كل الخير، وحدست انها ستكون القدوة الصالحة لاخواتها الفتيات العراقيات. وقد صدق حدسي، كما انها قررت ان تقوم بخدمات صالحة في المجتمع النسوي في العراق، وانها ستنشر مؤلفات وابحاثا علمية. فكان ما حزرت، فقد كتبت ابحاثا في مواضيح مختلفة نشرت في المجلات والجرائد، وكان آخر ما وقفت عليه من ثمار اعمالها كتابها «اول الطريق»...

وقد دفعني الى كتابة هذه المقدمة قيام الصلة الوثيقة بيننا، صلة استاذ مخلص مع تلميذة نجيبة وفية. فقد قضيت في تدريسها مع زملائها اربع سنوات في كلية الحقوق، وهي الفتاة الوحيدة بين نحو الف طالب يحترمونها وتحترمهم ويقدرون نشاطها وسعيها، وتقدر ادبهم وحسن سيرم معها على وجه المساواة والحرمة المتبادلة..».

توفيت صبيحة الشيخ داود ببغداد في ١١ تشرين الثاني ١٩٧٥.

كانت صبيحة الشيخ داود ابنة رجل دين مثقف عصري النزعة اتاح لها الدرس والانخراط في سلك التعليم والقضاء. فاذا ذكرت باحثة البادية ومي زيادة وهدى شعراوي في مصر فلا بد من ذكر قرينتهن صبيحة في العراق.

كان لها صالون ادبي يعقد كل اسبوع في دارها المطلة على دجلة فيحضره رجال الفضل والصحافة والادب والسلك الدبلوماسي. وقد زارت الاقطار العربية مرارا واتصلت برائدات النهضة النسوية فيها. قال جعفر الخليلي ان صبيحة متأنقة في لباسها، صريحة في قولها، يكاد لسانها ينطق بكل ما في صدرها، صبيحة الوجه حلوة الشمائل بعيدة عن التكلف الى حد معقول.

عن كتاب اعلام الادب في العراق الحديث الجزء الثاني

عراقيات
من زمن التوهج
العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

في (اذا الايام اغسقت) ..

حياة شرارة .. صورة الواقع والحياة الروائية

بلقيس شرارة

الالتزام.. سياسياً واجتماعياً

نشأت «حياة شرارة» في جو أدبي سياسي، و تشبعت في الأجواء الأدبية و السياسية منذ طفولتها، فغرست فيها اللقاءات الأدبية التي كانت تقام في دار والدنا، حَبها و تتبعها إلى الأدب و الشعر و القصة و الرواية و النقد. فأصبحت نهمة في القراءة و استيعاب ما كانت تقرأه.

كما جعلتها اللقاءات السياسية، تدرك و تؤمن منذ نعومة أظفارها، أن هنالك ظلماً و إجحافاً في المجتمع من خلال ما تعرض له والدنا، من اعتقال و سجن، انعكسا بدورهما على العائلة أيضاً. أدّت هذه الأحداث بها، إلى البحث عن أداة أو منظمة تجد فيها المنهاج المناسب الذي تتفاعل معه بإثارة شعورها بالإجحاف، و وجدت في الحزب الشيوعي تلك الأداة المناسبة التي كانت تنشدها. فانتمت إلى الحزب الشيوعي في السادسة عشرة من عمرها، و وجدت في الفكر الشيوعي الحلول التي كانت تتوق لها في تغيير مستقبل الشعب، وحل مشاكله، و الانتقال به إلى عالم آخر يسوده العدل و الإنصاف، و هو انتقال محَتم كما يعتقد الحزب الشيوعي. فهذا الانتشاء بالحياة الموعودة و الحلم بخلاص البشرية من البؤس و الإذلال هي النظرة الخلاصية التي لاذت بها المنظمات التقدمية، لأنها تعطي رؤية إلى المستقبل و خلاصها من الوضع الذي هي فيه. و لأنها منظمات واضحة في منهجها و هدفها، فهي مريحة من الناحية النفسية، و بها ضبط للذات و إعطاء هوية.

يظهر الالتزام في المجتمع بأشكال متعددة، و كثيراً ما يكون متضارباً ضمن المجتمع الواحد. لأن نفسية الإنسان مركبة، تجمع أحياناً تناقضاً بين الالتزام و التفرد وكرامة الذات. فهناك الالتزام الديني و الطائفي و القبلي و السياسي.

أما الالتزام السياسي فهو على نوعين: ١ – الالتزام السياسي الصارم، الذي يتمثل بحزب البعث أو الحزب الشيوعي أو الأحزاب الأصولية الأخرى. فلا يمكن للفرد في هذا النوع من الالتزام السياسي أو الديني الصارم، أن يخرج عن قرارات الحزب، و يتفرد عن الآخرين، و إنما يجب أن يكون من ضمن المنظومة الحزبية و يتنازل بذلك عن إرادته و حريته. و تصبح الذات خاضعة لنظام الحزب و ذلك واضح في جميع المجتمعات الشمولية. ٢ – أما الالتزام الآخر فهو الالتزام السياسي العقلاني، الذي يتمثل بالأحزاب الديمقراطية، كالحزب الوطني الديمقراطي في العراق. و يتصف الالتزام السياسي العقلاني، في أنه يسمح للفرد بالتفرد ضمن التضامن الاجتماعي، و لذا فانه يعتمد حرية المساءلة و التسوية. فكل قضية معرضة إلى تسوية للتوصل إلى حلول لصالح الطرفين، و هو واضح في أحزاب الدول الغربية، كما نشاهد ذلك في حزب المحافظين أو حزب العمال في إنكلترا و أحزاب الدول الديمقراطية الأخرى في أوربا و أمريكا، لأنها مجتمعات مدنية تؤمن بالتعددية و تعتمد على تفرد الفرد و تضامنه في المجتمع.

اللون الوردي لراجيف غاندي

و عندما زار راجيف غاندي، رئيس الوزراء الأسبق في الهند، الولايات المتحدة في منتصف الثمانينيات، سُئل عن علاقته بالاتحاد السوفيتي، إذ كان الاتحاد السوفيتي يعتبر آنذاك رمزاً للشر في عهد الرئيس ريغن، عندما أطلق عليه اسم « دولة الشر »، أجاب راجيف غاندي: لا يوجد عندنا لونان فقط، الأبيض و الأحمر، و إنما عندنا لون ثالث، و هو اللون الوردي. و يعني بذلك الحل الوسط و التسويات السياسية. يفتقد الالتزام السياسي الصارم إلى الحل الوسط و لا يقبل التعددية، فحياة الفرد خاضعة للقرارات الحزبية، و لا يمكنه الحياد عنها، بل تبتلع أيدلوجية الحزب الفرد و يصبح آلة مسخرة بتطبيقه لتلك الأيدلوجية. و هذا ما تعرضتْ له«حياة» عندما كانت عضواً في الحزب الشيوعي، فكانت تُطبق كل ما يمليه عليها الحزب من أوامر. و لم تشعر في يوم من الأيام، بالتناقض بين إرادتها و إرادة الحزب إلا بعد مرور أكثر من عقد و نصف تقريباً، بعد أن نضجت فكرياً و اعتزلت العمل السياسي.

من موسكو الى بغداد

عندما عادت «حياة» من موسكو إلى بغداد، انخرطت في سلك التعليم الجامعي، و لكن لم تمر إلا بضعة أعوام حتى تم تسييس التعليم العالي، من قبل حزب البعث الذي سيطر على جميع مرافق الدولة، و نصّب نفسه الممثل الشرعي للسلطة، و تعرض أساتذة الجامعة و منهم «حياة» إلى ضغوط شديدة و تهديد لمستقبلهم، و وجدوا أنفسهم أمام خيارين لا غير، أما ترك الجامعة أو الانتماء إلى حزب البعث. و نتيجة لمثل هذا الضغط السياسي، انتقل بعض الرفاق من الالتزام الشيوعي إلى الالتزام الأخر، و ذلك عندما وجدوا أن التزامهم الأول يتعارض مع مصلحتهم. و تلونوا بكل الألوان الممكنة، و أصبحوا جزءا من القطيع الذي اخذ يصفق و يعزف لحن الحزب الواحد و الرؤية الشمولية، كالأستاذ «وجدي» في رواية « إذا الأيام أغسقت» حيث أصبح من مثقفي السلطة، و تنازل بذلك عن وظيفة المثقف المستقل و المقاوم لمجرى الأحداث التي تفرضها عليه السلطة في الكلية. لأن الأستاذ الذي صار عضواً في حزب البعث أصبح يتمتع براتب أعلى و امتيازات كبيرة، وألقي على عاتقه الدور الأمني و البوليسي الذي يؤديه العميد أو رئيس القسم في الكلية كما هو واضح في رواية « إذا الأيام أغسقت».

و لكن «حياة» لم تسمح لها كرامتها التي تمسكت بها كتمسك الشعرة بأهداب العين، بالانتقال من التزام آخر، لأن الالتزام عندها هو مقياس أخلاقي، و ظلت مستقلة في موقفها البعيد عن تأييد السلطة و عن المثقفين التابعين لها، مقاومة لضروب التسلط في جميع أشكاله، و لازمتها الكرامة كظلها، حتى في الظروف القاسية التي عانها. و معروف إن الفئة المثقفة هي الفئة الأولى التي تتعرض عادة

العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

للضغط السلطوي في المجتمع الشمولي. و ما يهم السلطة المستبدة هو إخضاع ضمائر تلك الفئة أو تهديدها بمعيشتها و شل تفكيرها. و لا تخاف السلطة المستبدة على شرعيتها أكثر من المثقف الحر المستقل التفكير الذي يكّون خطراً عليها، و التاريخ مملوء بالشواهد على ذلك.

الحزب الشمولي و الحياة الجامعية

لذا قاست «حياة» كثيراً في حياتها الجامعية، عندما رفضت الانتماء إلى حزب البعث، مؤكدة بحزم موقفها المستقل و التفرد الذي لا يتحمله الفكر التوحيدي و الأنظمة الشمولية، مما أدى إلى تعرضها إلى صعوبات، و خلق مشاكل كثيرة لها، أثناء وجودها في الجامعة. و عندما تضاعف العنف و اضطهاد الناس الذين لا يخضعون إلى فلسفة حزب البعث في تلك الفترة، أتخذ قرار بالتخلص من جميع الأساتذة الذين لا ينتمون للحزب. كانت «حياة» على رأس القائمة، عندما نقلت إلى مشروع صناعي في مدينة الديوانية. و لكن أعيدت إلى الجامعة بعد فترة قصيرة، حيث لم يجدوا أستاذا يشغل منصبها، و لكنها تعرضت في الوقت نفسه إلى المراقبة الدائمة من قبل مكتب ضابط أمن الجامعة، و أصبحت من المشكوك في ولائهم، بما في ذلك فتح الرسائل التي كانت تُبعث لها من قبل عائلتها. و كانت تُقرأ من قبل ضابط أمن الجامعة، قبل أن تقرأها «حياة»، بالرغم من أنها بدرجة أستاذ. إذ ليس هنالك قدسية و احترام أعز ما يخص الفرد، و هو قراءة مضمون الرسائل الخاصة به، و التدخل بخصوصيته، بهذا الشكل المفضوح و النابي. و لأن الفكر الشمولي يفترض تنظيماً اجتماعياً موحّداً و فكراً موحّداً، لذا يطلب الالتزام الصارم، و العمل على خضوع الآخرين لأرادته. و يتم بذلك استغلال الفرد و سحق تفرده. فتفتيش رسائل الأساتذة هو جزء من الإجراءات لتوحيد الفكر، و يُعتبر خطراً أي سلوك خارج عن تفكير المنظومة الحزبية، بل يعتبر جسما غريبا، يجب مراقبته و اقتلاعه و القضاء عليه. وبذلك تحولت المؤسسات العلمية إلى مراكز أمنية ضمن الجامعات و انتشر فيها المخبرون بحجة حماية الأمن الوطني من الأعداء الذين لا يؤمنون بفلسفة الحزب.

الصورة الروائية

نجد ذلك واضحاً في رواية « إذا الأيام أغسقت» في سلطة و سطوة العميد التعسفية، حيث تنتقل هذه النزعة التسلطية إلى رؤساء الأقسام، ثم الأساتذة و الطلاب، فهي سلطة تراتيبية هرمية، أو تدرج هرمي من الأوامر التي لا يجوز تخطيها، و الخروج عنها في الفكر الملتزم. و الهدف الرئيس في الفكر الموحّد و المجتمع الشمولي هو إسكات المثقف المستقل، و ذلك واضح في الإرهاب و الالتجاء إلى العنف الذي وصل إلى قمته في جامعة الموصل، حيث أفرد سجن خاص في داخل حرم الجامعة، و غرف للتحقيق، لمعاقبة و سجن الطلبة و الأساتذة المشكوك في ولائهم. و تعطينا «حياة» صورة واضحة عن ذلك الجو، و الرقابة الذاتية الذي أصبح يحملها الفرد في ساحة العمل، و الجامعة، في رواية « إذا الأيام أغسقت»: « نحن نقول الآن نعم عندما يرفض ذهننا فكرة أو عملاً مقترحاً علينا، و نبتسم عندما تتجهم نفوسنا و ترغب بالعبوس، و يلوح علينا الهدوء عندما يتملكنا الغضب» (ص ١٨٢). إنه وصف للهيمنة الفوقية و التسلط و الاستبداد و غياب العدالة، في كبت مشاعر و أفكار المثقف و خضوعه التام، و سحق للفكر، ليصبح آلة مسيرة، وظلاً للسلطة.

إيقاعات الحياة اليومية

على الرواية

عرضت «حياة» عدداً متنوعاً من الشخصيات و الأبطال في رواياتها، يتراوح عددهم على ست و عشرين شخصية. و كل واحد هو نسيج من عدة شخصيات في المجتمع الجامعي و العراقي. و لذا تؤلف كل شخصية في الرواية، تركيباً و مزيجاً لهذه الشخصيات التي لا تمثل شخصية معينة بالذات، صوّرتها الكاتبة من خلال ملاحظتها الدقيقة، للواقع الذي عاشته، و أضافت إليه من تجربتها الشخصية و ملاحظتها للواقع. فالكاتب يبدأ بصياغة الكلمات و الجمل و يحبكها في نسيج متين. يكّون شخصياته و يشكّل أبطاله كعجينه، أثناء عملية الابتكار، يدخل في أعماق نفسيتها، فيعريها تارة، و يلبسها من خياله ألوانا، و ظلالاً مختلفة تارة أخرى، فتظهر لنا شخصيات حية نابضة بالحياة. لذا فان رواية « إذا الأيام أغسقت» رواية واقعية، أحداثها من صلب الحياة اليومية، و ليس هنالك تصعيد روائي لأثاره مشاعر القارئ، و إنما يعرف القارئ نهاية الرواية منذ الصفحات الأولى. و ليس هنالك مفاجآت مذهلة أو أحداث عنيفة متطرفة أو عقدة متأزمة، كما هي الحال في القصص البوليسية مثلاً، و لكن هنالك سرد للأحداث من خلال شخصيات الرواية التي يصل بعض أبطالها إلى لحظات التمزق و الانهيار، و ذلك عندما تتمزق المفاهيم و تضيع القيم بعنف غير معقول، من خلال حادثة أو عمل يكون السبب في تقويضها. استطاعت الكاتبة من خلال ملاحظتها الدقيقة، أن تصور الإذلال و الإهانات اليومية التي كان يتعرض لها أساتذة و موظفو الجامعة، بإصغائها و مشاركتها أحاديثهم، التي تدور عن كيفية الحصول على المواد الغذائية، و القلق الذي كان يساورهم عندما يعجزون عن سد رمق عائلاتهم، و اضطرارهم لبيع سياراتهم، أو العمل كسواق تكسي في ساعات فراغهم. و أضافت إليها من تجربتها عندما شعرت بحصار السلطة لها و أغلقت أبواب النشر أمامها. و هو أقسى أنواع الحصار على الكاتب و المؤلف. و لذا عندما سُئل الأستاذ «أكرم» أحد أبطال الرواية، إن كان يواصل الكتابة؟ «ستدهش إذا قلت لك إنها أصبحت تشبه مياه المستنقع الراكد! ماذا تعني الكتابة إذا أصبحت بلا غاية! أعني إذا لم تستطع أن تنشر ما تكتبه و توصله إلى الناس! ما قيمتها إذا ظلت محفوظة في أدراج مكتبك أو على الرف؟.. إن كل ما يمكن أن آمله هو أن تنشر نتاجي بعد موتي، إذا حالفها الحظ! » (ص ٣٢٢). تسجل هذه الرواية الأجواء المعتمة، الخانقة، نفسياً و فكرياً و سياسياً و اقتصادياً، أجواء غير طبيعية مّر بها العراق، و لا زال يعاني منها في المرحلة الراهنة، خاصة الفئة المثقفة منها، من المبدعين و المفكرين، التي أول ما تطالها السلطة، أن يكون هدفها الرئيس هو إسكات المثقف في جميع المجالات، و يشمل البلدان التي تحت حكومات دكتاتورية.

الحرية المفقودة

جسدت «حياة» براويتها حقيقة الأستاذ الذي كان رمزاً إلى المعرفة و العلم، و

عرضت «حياة» عدداً متنوعاً من الشخصيات و الأبطال في روايتها، يتراوح عددهم على ست و عشرين شخصية. و كل واحد هو نسيج من عدة شخصيات في المجتمع الجامعي و العراقي. و لذا تؤلف كل شخصية في الرواية، تركيباً و مزيجاً لهذه الشخصيات التي لا تمثل شخصية معينة بالذات، صورتها الكاتبة من خلال ملاحظتها الدقيقة

أصبح ألعوبة بيد النظام. فصورت الصراع النفسي الذي يعانيه، عندما يشعر أن لا كيان له، من خلال أحداث الرواية التي يتعرض لها الأساتذة من الإهانة و الإذلال، في انتظار فتح باب الكلية لهم، و إجبارهم على الاشتراك بالمسيرات، و التصفيق عند ذكر أسم رئيس الجمهورية في اجتماع العميد، و سوق الأساتذة و الطلبة في الاشتراك في الحرب العراقية الإيرانية، و التدخل في رفع درجات طلاب القبول الخاص. فيشعر الأستاذ بصغر شأنه، أمام السلطة و ضعفه و عدم قدرته على أن يقف أمام هذا التيار من الإرهاب. كما تطرقت الكاتبة في روايتها، إلى أحداث ربما يتصورها القارئ البعيد عن أحداث العراق، من صنع الخيال لا صلة لها بالواقع، و كأنها تتحدث عن عالم غريب، لا يمت إلى المجتمعات المدنية بصلة، بل عالم قائم بحد ذاته، له قوانينه و تعاليمه الخاصة به. إذ أصدرت السلطة، مرسوماً شملت المسؤولين، من الوزراء و رؤساء الدوائر الحكومية و أساتذة الجامعة، في تحديد وزنهم، حسب مقاس أصدرته السلطة، بالنسبة لطول و وزن الفرد، و عليهم ألا يتخطوا ذلك المقاس عندما يحين موعد الوزن السنوي. و عندئذ يقادون كما تقاد الخراف إلى المسلخ. صوّرت «حياة» القلق الذي ينتاب الأساتذة قبل الوزن، و إحساسهم بالذل فوق الميزان، و المعاناة النفسية التي تهيمن عليهم، عندما يكتشفون أنهم تخطوا الوزن المطلوب، فيشعرون أن سيفاً مسلطاً على رقابهم، سيف الإهانة و الإذلال، بتخفيض رواتبهم الشهرية، و درجتهم الإدارية و العلمية. و وصفت سيكولوجية ذلك الفرد الذي اسُتلب حقه حتى في التصرف في بدنه، عليه أن ينضوي تحت التعليمات، التي لا تكتفي بقولبة فكره، وإنما قولبة حجم بدنه. و شعر بطل الرواية «نعمان» عندما وجد أن وزنه أقل بنصف كيلو غرام : وكأن حملاً ثقيلاً حمله مدة طويلة قد ألقي عن كاهله. و لكنه شعر أيضاً بالاختناق و التصدع النفسي بعد الانتهاء من الوزن، فاضطر إلى القفز من نافذة الغرفة عندما سمحت له الفرصة، و عّبر عن شعوره في الفقرة التالية: «شعرتُ أنني قفزت من فوق جدران سجن إلى الفضاء الواسع و استعدت حريتي المفقودة، و لم تعد لي علاقة بتلك البناية التي بدت لي مختلفة، عما يجاورها من عمارات. توارى كل القلق و الترقب في داخلي، و لكنني لم أعد أنا نفسي، فقد تصدع شيء في أعماقي و انهار، و جثمت أنقاضه على مشاعري و بهتت هويتي الشخصية و اتخذت سمات دخيلة عليها، لا تنسجم مع صفاتها المألوفة. ألقيت نظرة على المبنى قبل مغادرته، كان عدد الأساتذة قد أزدادَ فيه و كانوا يقفون كالأسرى الذين لا يعرفون متى ستنقضي محنتهم و يقرر مصيرهم»(ص ١٦٢).

يعّرف علماء السيكولوجي، أن الخوف غريزة تساعدنا على البقاء، و نوع من الحذر عند الإنسان حينما يكون مصدر الخوف معروفاً. فجميعنا نخاف لدغة الأفعى، نحاول أن نتجنبها لأننا نعلم مصدر الخوف. أما عندما تنتشر «رائحة الخوف» بعموميتها كما وصفتها «حياة»، لا يستطع الفرد عندئذ، في الاستمرار في حياته اليومية بصورة طبيعية، لأنه يجهل مصدر الخوف، فهو منتشر في الهواء الذي يستنشقه يومياً، عندئذ يصبح رعباً. و الرعب يسيطر عادة تدريجياً على الفرد، و تصبح الرقابة الذاتية جزءاً من كيان الفرد في ساحة العمل و الجامعة و يرافقه في مختلف مجالات الوجود و يسيطر على نفسيته حتى في خلوة داره. هذا ما عبّرت عنه «حياة» في تصويرها للخوف عندما ينقلب إلى رعب: « أطل الخوف أمام ناظري في البداية كبرق خاطف يسبي الأبصار ثم توارى. غير أنه لم يَغب نهائياً، بل ظل يظهر بين آونة و أخرى بدرجات تختلف في قوتها و ارتفاعها و عمقها. كان يتخذ شكل دخان رمادي كثيف يلتف و يتصاعد في دوائر مرئية ثم ينتشر عرضاً و طولاً، و يتسلل إلى النفوس و ينبت في حناياها و يرقد فيها و يترك على نحو مزمن آثاره الرمادية الكابية» (ص ٦٨). كما وصفت في فقرة أخرى الاختلاف بين الخوف الغريزي و الرعب. وعبر كتاب غربيون عن هذا الرعب الذي مارسته بعض السلطات في أوربا الغربية في عقد الثلاثينيات، كالكاتب ألشيكي«كافكا»، كما عبر عنه كتّاب في الاتحاد السوفيتي كالكاتب الروسي«صولجينتسن» في عدد من رواياته. و عندما سئل الموسيقار الروسي «جستاكوفيج» في إحدى زياراته إلى الولايات المتحدة: بأي درجة تضع نفسك بالنسبة لستالين ؟ أجاب: أنا بمنزلة الدودة. بينما أخذ التاريخ ينسينا دور ستالين كمنظّر سياسي، و لكن بمرور الزمن أصبح الموسيقار «جستاكوفيج» من أعظم ما أنتجته عبقرية القرن العشرين في الموسيقى.

لم تستطع أن تستمر «حياة» في التدريس في الجامعة بعد رفضها بإصرار دائم الانتماء إلى حزب البعث، و خسرت بذلك عملها في الجامعة و أغلقت أبواب النشر أمامها و وجدت جميع أبواب العيش موصدة أمامها. أحست بأنها محاصرة من جميع الجهات و أنها تعيش في سجن، و لم تبق لها حتى كوة مضيئة تساعدها على الاستمرار في الحياة. و لكنها أنهت كتابة رواية «إذا الأيام أغسقت» قبل رحيلها عن هذا العالم بأربعة أشهر، لتترك لنا وثيقة أدبية صريحة عن تفرد الفرد و بيان مشاعره، و مجابهة حقيقية لسطوة السلطة على الفرد و سحقه، و هي صراحة لم تزل نادرة في الأدب العراقي.

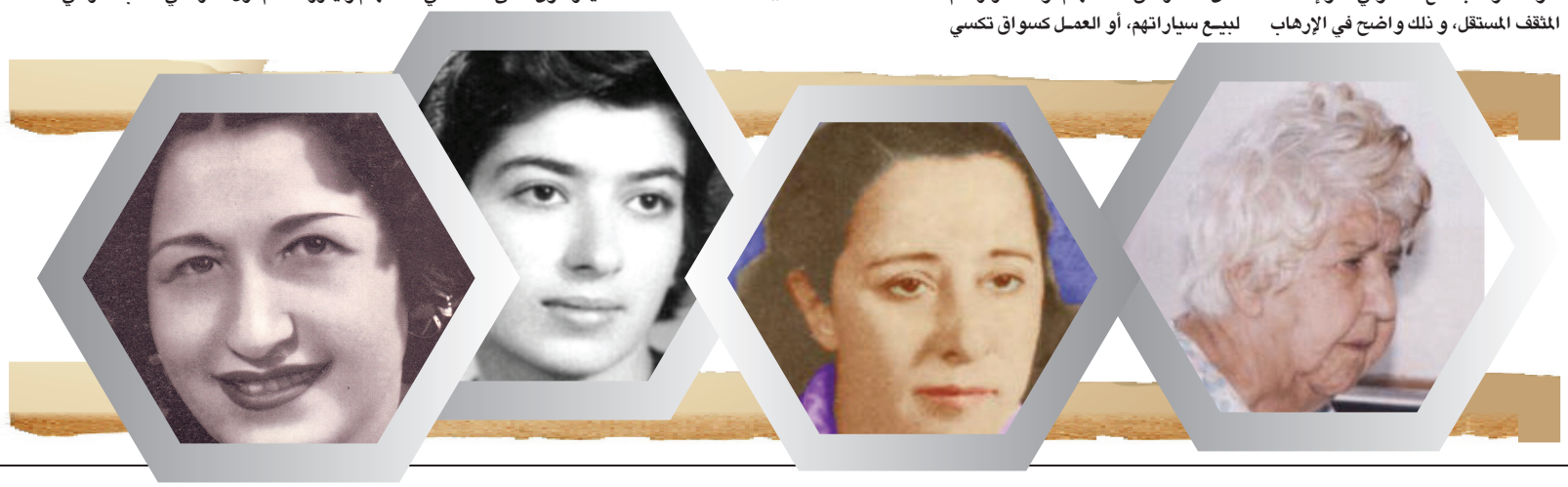

العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

أوائل العراقيات..

أول طبيبة عراقية تتخرج عام 1939.. وحكاية جمعية تحرير المراة

عبد الكناني

بدأت الحركة النسوية العراقية النشاط الاجتماعي العلني من خلال مجموعة من النساء المتعلمات من الطبقة الأرستقراطية في تأسيس أول ناد نسوي أطلق عليه أسم (نادي النهضة النسائية) عام ١٩٢٣، ومن ضمنهن السيدة نعمة سلطان حمودة، السيدة أسماء الزهاوي، والآنسة حسيبة جعفر، والآنسة بولينا حسون، وعقيلات عبد الرحمن الحيدري، ونوري السعيد، وجعفر العسكري .

ساهمت المرأة في المجال الصحفي عند ظهور اول مجلة نسائية (ليلى) عام ١٩٢٣ وكانت رئيسة تحريرها بولينا حسون التي طالبت بمنح المرأة حقوقها السياسية وبدأ تأسيس المنظمات النسائية الخيرية مثل الهلال الاحمر وجمعية حماية الاطفال وجمعية بيوت الأمة وجمعية البيت العربي .

كانت اول طبيبة عراقية عينتها وزارة الصحة، ارمنية، هي الدكتورة آناستيان، وهي اول فتاة عراقية دخلت كلية الطب في بغداد وتخرجت فيها سنة ١٩٣٩ .

الدكتورة سانحة أمين زكي اول فتاة مسلمة تدخل كلية الطب ولدت عام ١٩٢٠ وتعتبر واحدة من بناة حضارة العراق .

الدكتورة سلوى عبد الله مسلم وهي اول طبيبة صابئية مندائية تخرجت عام ١٩٥٦ وكانت مثال الاخلاق والطيبة المندائية وتميزت بخدماتها الانسانية في مجال الطب العام والنسائية والولادة .

في مطلع الأربعينيات دخلت المرأة الحياة السياسية بتأسيس اللجنة النسائية لمكافحة الفاشية وكانت تضم بين صفوفها الطبقة الواعية من المثقفات وتم استبدال اسم هذه الجمعية إلى اسم الرابطة النسائية واصدرت في عام ١٩٤٧ مجلة باسم «تحرير المرأة» الا انها اغلقت بعد صدور عددين منها فقط. .

أول من تخرجت في كلية الحقوق صبيحة الشيخ داود عام ١٩٤١ ولعبت دورا رياديا اجتماعيا في النهضة النسوية العراقية ؛ فقد شاركت في مختلف الجمعيات الخيرية كالهلال الاحمر والام والطفل والاتحاد النسائي ؛ وساهمت في كثير من المؤتمرات النسوية والانسانية داخل العراق وخارجه ؛ فكانت صوتا امينا دلل على رفعة المرأة وتقدمها وصدق كفاحها من اجل المساواة في الحقوق والواجبات .

عام ١٩٤٥ تأسست جمعية المرأة العراقية المناهضة للفاشية والنازية برئاسة عفيفة رؤوف، وعضوية كل من نزيهة الدليمي وروز خدوري وفكتوريا نعمان وعفيفة البستاني وأمينة الرحال وسعدية الرحال ونظيمة وهبي .

تُعْتبرُ المحامية أمينة الرحال أول إمرأة تمارس مهنة المحاماة في العراق حيث انها تخرجت في كلية الحقوق (كلية القانون) سنة ١٩٤٣ وعملت في مكتب المحامي عبدالرحمن خضر ويقال انها كانت أول إمرأة في العراق تتولى قيادة سيارة .

المحامية الثانية في العراق فهي المحامية أديبة طه الشبلي التي قبلت في كلية الحقوق سنة ١٩٤٩ وبعد التخرج عملت في المحاماة وفتحت مكتباً خاصاً لها في عمارة الخلاني في شارع الرشيد ببغداد .

ساهمت المرأة العراقية بدور فاعل ومميز في وثبة كانون الثاني عام ١٩٤٨ لاسقاط معاهدة بورتسموث ولا ننسى (عدوية الفلكي) حينما تقدمت المتظاهرين، حاملة علم العراق، وقد تعرضت النساء للاعتقال كما ساهمت النساء في انتفاضة اكتوبر عام ١٩٥٢ وبلغ عدد المعتقلات جراء ذلك ١٥٠ امرأة .

وبتاريخ ١٠/ ٣/ ١٩٥٢ تأسست أول منظمة ديمقراطية جماهيرية باسم رابطة الدفاع عن حقوق المرأة ومن ابرز مؤسساتها : الدكتورة نزيهة الدليمي ، الدكتورة روز خدوري ، سافرة جميل حافظ ، خانم زهدي ، سالمة الفخري ، زكية شاكر ، زكية خيري وانا مبجل بابان .

عينت د. نزيهة الدليمي أول وزيرة عام ١٩٥٩ وتعتبر أول وزيرة بالوطن العربي وهي الوزيرة التي اثبتت المساواة بين الانثى والذكر قانوناً .

احتشد جمهور غفير في ملعب الكشافة، من عشّاق فريق الشرطة وأنصار نادي الجيش. كان ذلك عصر الجمعة في الرابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) وخلاله جرت اول مبارة نسوية مكشوفة بكرة القدم بين فريق كليّتي التربية الرياضية وفريق كلّية العلوم .

القاضية السيدة زكية اسماعيل حقي، اول قاضية في العراق ورئيسة اتحاد نساء كردستان حتى عام ١٩٧٥.

ولا ينسى التاريخ بطلات الرياضة سلمى الجبوري وايمان صبيح وايمان الرفيعي وباسمة بهنام والعداءة العراقية إيمان عبد الأمير في مسابقات ركض الـ١٠٠ متر حواجز، في ١٤،٤١ ثانية.

و دور كل من زكية العبايجي وسالمة الخفاف وفائزة النجار وسهيلة كامل شبيب ونهى النجار في تأسيس نادي الفتاة العراقي في الخمسينيات وكان للهيئة الادارية واللاعبات دور كبير في رفد الحركة الرياضية وتطورها وفي جمع التبرعات بعد حرب ١٩٦٧ وايصالها الى المخيمات في الاردن وسوريا وزيارة الجرحى في المستشفيات وتوزيع الهدايا عليهم .

وفي مجال الرسم برز اسم نزيهة سليم ، اكملت دراستها بالرسم عام ١٩٤٧ وتخرجت في معهد الفنون الجميلة وكان يشار لرسومها وقابليتها الفنية العالية وهي شقيقة الفنان الراحل جواد سليم .

الشاعرة نازك الملائكة ولدت في بغداد عام ١٩٢٣ . ونشأت في بيت علم وأدب ، في رعاية أمها الشاعرة سلمّى عبد الرزاق أم نزار الملائكة وأبيها الأديب الباحث صادق الملائكة وتخرجت فيها عام ١٩٤٤ بدرجة امتياز من دار المعلمين العالية،

ثم توجهت إلى الولايات المتحدة

العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

الأمريكية للاستزادة من معين اللغة الانكليزية وأدابها عام ١٩٥٠ تجيد من اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية ، بالإضافة إلى اللغة العربية ،

وتحمل شهادة الليسانس باللغة العربية من كلية التربية ببغداد ، والماجستير في الأدب المقارن من جامعة وسكونسن في أميركا .

الشاعرة رباب الكاظمي ولدت في القاهرة وهي ابنة الشاعر عبد المحسن الكاظمي . بدأت تشعر في سن مبكرة كانت تكتب عن الوطنية وحب الوطن .

ابتهاج عطا امين ولدت في بغداد ١٩٢٧ لقبت ب " بلبلة العراق الفريدة " ١٩٤٣ التحقت بالجامعة في القاهرة ثم حصلت على ليسانس اداب ثم ماجستير" شعر العراق ١٩٥٧" ذو خيال خصب في الادب والشعر .

في ميدان الشعر المنظوم برزت (سافرة جميل حافظ) شاعرة هادئة لها ضربات ايقاعية في جل قصائدها، وجيدها ذلك الذي كانت تقوله في المناسبات .

الشاعرة الجريئة والاستاذة الدكتورة (عاتكة وهبي الخزرجي) التي ولدت في بغداد ١٩٢٤، وتخرجت في دار المعلمين العالية سنة ١٩٤٥، ثم حصلت على الدكتوراه من السوربون في باريس، وقد اصدرت ثلاثة دواوين شعر هي(انفاس السحر - ١٩٦٣، القاهرة) و (لألاء القمر - ١٩٦٥ ، القاهرة) و(انواف الزهر - ١٩٧٥ الكويت)، كما اصدرت مسرحية شعرية بعنوان مجنون ليلى نهجت في كتاباتها نهج امير الشعراء احمد شوقي ويتميز شعرها باللون القصصي.

لميعة عباس عمارة ولدت عام ١٩٢٩ فى بغداد تخرجت فى دار المعلمين العالية عام ١٩٥٠ . عملت مدرسة فى دار المعلمات الأولية ، وفى ثانويات بغداد إلى أن تقاعدت فى السبعينيات للتفرغ لحياتها الأدبية والشعرية .اشتغلت فى أواسط السبعينيات فى منظمة اليونسكو . نشرت الكثير من نتاجها ، منذ كانت طالبة فى دار المعلمين العالية فى أكثر من صحيفة ومجلة عربية من دواوينها الشعرية الزاوية الخالية ١٩٦٠ .

الشاعرة العراقية مقبولة الحلي ولدت ١٩٢٩ وانتظمت في كلية الملكة عالية ببغداد تخرجت فيها سنة ١٩٥٣ ميلادي ثم عينت مدرسة للغة العربية في ديالى في متوسطة المقدادية مدة ثلاث سنين و عادت بعدها للتدريس في بغداد في ثانوية الحريري للبنات و بقيت مدرسة فيها حتى وفاتها عام ١٩٧٩ وديوانها الحب الكبير الذي اشار اليه بعض الباحثين قد كان المتوقع ان يطبع الا ان هذا لم يحدث ولقد احسن الدكتور احمد حميد كريم صنعا في جمعه ما استطاع من شعرها المنشور في تلك الصحف والمجلات وذلك في عمله ديوان مقبولة الحلي 'دراسة وجمع وتحقيق' في مجلة كلية العلوم الاسلامية –جامعة بغداد .

صروف العبيدي التي اكملت دراستها في دار المعلمين الابتدائية ولدت سنة ١٩٣٧، لها ديوان شعر اصدرته سنة ١٩٥٥.

أميرة نور الدين ولدت سنة ١٩٢٥ والتحقت بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٣، ونالت شهادة الماجستير سنة ١٩٥٧ عن رسالتها الموسومة (الشعر الشعبي العراقي في العراق الاوسط)

.برز في فترة الخمسينيات في بغداد، اسم الاختين(فطينة النائب) (شاعرة) و(ماهرة النائب) (قاصة) ولها اخت ثالثة اسمها (سامية النائب) كانت تنظم الزجل والشعر العامي .

وقد شبههن الاستاذ الدكتور صفاء خلوصي في مقال كتبه في مجلة العربي سنة ١٩٦٠ بالثالوث الانكليزي - برونتي Bronte شارلوت وآن واميلي. كانت ماهرة تتخذ لها شهرة (النقشبندي) تميزا لها عن شهرة النائب.

برزت (امال الاوقاتي) في ترجمة قصة (مرحبا ايها الحزن) تأليف (فرانسو ساغان) من الفرنسية الى العربية.

انتقلت القاصة (ديزي الامير) بابداعها القصصي ومواهبها الكتابية في القصة والرواية الى الاجواء العربية يوم اختارت بيروت سكنا وموطنا ثانيا لها.

اما (مديحة بحري) فقد كانت كاتبة من الطراز الاول سكنت باريس في منتصف الاربعينيات وكانت من أوائل السيدات العراقيات اللواتي عملن على الساحة الاوربية حيث افتتحت وأدارت محلات للكوافير، كما كانت دائمة الاتصال بالمجلات النسوية والمنتديات الثقافية، ومن مقالاتها المبكرة في جريدة الميثاق مقالاً بعنوان (في سبيل الوطن علموا أبناء الأمة التضحية) الصادرة في الأول من كانون الثاني سنة ١٩٣٥..كما نشرت في الموضوع نفسه بمناسبة استشهاد الطيارين العراقيين الخمسة كل من الآنسة (حليمة رؤوف) والآنسة (رزينة الزهاوي)..

برزت القاصة (نزهة غانم) حين أصدرت أول مجموعة قصص لها في العراق بعنوان (المرأة المجهولة) في بغداد سنة ١٩٣٤ ..

كما نشرت في الصحف مقالات متنوعة كل من (حميدة الحبيب) سنة ١٩٤٠ و(افتخار الوسواسي) سنة ١٩٤٧ و(حربية محمد) سنة ١٩٥٣.

خيرية المنصور - المرأة العراقية الوحيدة التي ولجت ميدان الاخراج السينمائي وبرعت فيه وقدمت فيلمين روائيين طويلين وعشرات الافلام القصيرة اضافة إلى مسلسلين تلفزيونيين .

وفي مجال الأعلام برز اسم فكتوريا نعمان في عام ١٩٤١ دخلت كلية الحقوق وكانت مع زميلتيها سمية الزهاوي ونزيهة فرج الطالبات الثلاث الوحيدات في الدفعة من مجموع مئتي طالب. وحدث ان استمع اليها مدير اذاعة بغداد، حسين الرحال، تلقي كلمة في حفل بالكلية، فأعجب بالقائها ودعاها للعمل في قسم الاخبار. وبهذا اصبحت اول مذيعة عراقية عام ١٩٤٣، وصل صوتها الى المستمعين مرتين كل يوم، في نشرتي الرابعة عصرا والثامنة مساء.

من المربيات الفاضلات في مجال التعليم والخدمة العامة، برزت (رفيعة الخطيب) و(سليمة زيتون) وامت سعيد وافتخار الوسواسي وسعاد الاوقاتي وغنية الكاطع وصدوف الكاظمي وراجحة الدوري .

واسماء اخرى كثيرة حفرت على تراب الوطن ذكريات جميلة لا تنسى في المجالات العلمية والثقافية والادبية والتربوية والسياسية طوال هذه السنين واليوم اصبحت تصفق وتقول نعم لما يملى عليها او تبتعد منزوية في البيت او تقف على اسوار الوطن ودموعها تسيل .

هذه المرأه التي تربي الاجيال وتصنع القاده متى يعود اسمها لامعا يرفرف عاليا بعيدا عن كل اشكال العنف الذي تتعرض له لتهميش دورها او حصره بالانجاب او بالغاء الفكر ،

لن تعود الا بعد ان يتم احداث تغييرات مجتمعية مهمة تؤمن بدور المرأة بالمشاركة والمساواة والعدالة والقضاء على كل الأساليب التي تقيدها وتعامل كأنسانة لها الحق في الحياة ،

لتعود رمزا للوطن وعنوانا لكرامته ومربية لابنائه

عراقيات
من زمن التوهج
العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

عمارة (زها حديد).. واقعية الفضاء الافتراضي

د.خالد السلطاني

ثمة شعور خاص واستثنائي، ينتاب المرء، عندما يجول في فضاءات واقعية، سبق وان تعرف عليها افتراضاً عبر مخططات معمارية مشغولة هي ايضا بشكل استثنائي. وهذا ما يحس به زائر التوسعة الجديدة لمتحف " اودغوبغو " Ordrupgaard، الواقع في شمال ضواحي العاصمة الدانمركية – كوبنهاغن، والمصمم من قبل المعمارية العراقية الاصل ذات الشهرة العالمية:

" زها حديد ". وقد جرت مراسيم حفل انتهاء بناء التوسعة وتدشين افتتاحها يوم ٣٠ آب (اغسطس) ٢٠٠٥، بحضور ملكة الدانمرك " مارغيته الثانية "، وبمشاركة المعمارية المشهورة نفسها.

ومعلوم، ان " زها حديد " في جميع مشاريعها تتكأ في مقارباتها التصميمية على استراتيجية " التفكيك Deconstruction "، تلك الاستراتيجية التي تدرك الفضاء المصمم و " غطاءه " معاً، كقيمة تصميمية مميزة،تفضي الى تشكيل هيئات معمارية غير عادية " تتلبسها " حركة موارة، تحيل تلك الهيئات الى محض كتل، تندمج فيها وظائف مفردات الانشاء فيما بينها، وتتلاشى خصوصيتها، ويتأسس هذا الادراك على قاعدة التفسير الذاتي والتأويل الشخصي لمجمل البرنامج التصميمي للمنشأ المصمم، مع الاهتمام بخصوصية المكان، ومن ثم ترجمة كل ذلك الى رسومات تخطيطية تقود لاحقا الى تشكيل نماذج تصميمة عديدة. ومن خلال الاشتغال على هذا الاسلوب، فانها نجحت في دمج متطلبات برنامج " التوسعة " المتشعب نوعا ما، للخروج بهيئة معمارية نادرة حافلة بحضور اسلوب " انسياب " الفضاءات بصورة معبرة وجريئة. وفي النتيجة فنحن امام بلاغة متقنة لصياغة معمارية لامعة،" ليس فقط لجهة الاحساس بها لذاتها، وانما ايضا لجهة ارتقاء بالامكانات غير العادية، المرتبطة باسلوب عرض اعمال المتحف الفنية."؛ وفقا لتقييم احد النقاد المعمارين الدانمركيين.

... عندما اخبرني المعمار العراقي الراحل " عبد الله احسان كامل " في النصف الاول من عقد الثمانينات، بانه اطلع مؤخرا، على مخططات مشاريع " زها حديد "،المُعارة اليه من قبل والدها، الشخصية السياسية العراقية المرموقة " محمد حديد "، كان ذلك اول " معرفة " لي بعمارة " زها "، واسمها، التي ستضحى لاحقا وسريعا من ابرز رموز العمارة العالمية. كان الانطباع الاولي الذي خرج به احد مؤسسي العمارة العراقية الحديثة الاساسيين، بان رسوم مخططاتها لا يمكن ادراكها بسهولة... وفي حينها نزلت عليّ كلماته كالصاعقة!. اذ كيف يمكن لمعمار متمرس، واستاذ قدير كعبد الله احسان كامل، عالي الثقافة وخريج " هارفرد " المشهورة، ان يجد مشقة في قراءة مخططات معمارية؟؛ وماهي طبيعية تلك الرسوم التي يتعذر " فك " شفرتها؟. ورغم احساسنا باننا كنا في العراق، وقتذاك، وبسبب سيطرة النظام الديكتاتوري التوتاليتاري، معزولين تماما، عن ما يدور في " الورشة " المعمارية العالمية المجاورة، من شيوع مفاهيم وتحقيق منجزات، ذلك لان الجو المهني والعلمي كان " مترعا " بجدب ثقافي عميق، يزيده ترسيخاً سلوك " الاباء " الجدد الغارقين في اميتهم، والاتين من قيعان الارياف الرثة، والمتبوؤين لاعلى المناصب القيادية في الدولة العراقية؛ رغم ذلك الاحساس بالعزلة، فقد كان عصياً عليّ " هضم " قبول حادثة " عدم القدرة " في فك طلاسم المخططات اياها. الامر الذي شوقني كثيرا للاطلاع على تلك المخططات،وامتحان قدرتي في " قراءة " رسوم لا يمكن بسهولة قراءتها، وهو ما وفره زميلي الراحل لي سريعا.

واذكر بان قسما من المخططات كانت خاصة بمسابقة " نادي على قمة جبل " في هونك كونغ (١٩٨٢-٨٣)، والتي اعلن مؤخرا في حينها، فوز المصممة فيها. كانت المخططات فعلا مرسومة باسلوب غير تقليدي، اسلوب تتداخل فيها رسوم المخططات الافقية للطوابق المتعددة مع مقاطعها ومناظيرها؛ ويتم فيها عرض اسلوب معالجات الواجهات المختلفة بنظرة واحدة، وكل ذلك مشغول على خلفية رسوم " كنتورات " تضاريس الموقع، المؤشرة بخطوط متعرجة، داخلة وخارجة!.

لم يكن اسلوب رسم المخططات لوحده امرا غريبا، اذ بدت العمارة ذاتها انجازا فريدا واستثنائيا، انجازا يطمح لان يكون متساوقا مع طبيعة متغيرات فلسفية ومهنية طرأت على المشهد الابستمولوجي المعاصر. واذ تتوالى نتاجات زها حديد لاحقا، مع نتاج معماريين آخرين، فان مرحلة جديدة لعمارة غير مسبوقة بدأت ارهاصاتها تظهر معلنة بوضوح عن تلامس الفعالية المعمارية لتخوم ابداعية، لم تكن مفرداتها متداولة اصلا ولا معروفة مسبقا لدى المصممين. وها انا الان، اقف في " لجة " الحيز الواقعي لتصميم نادر التنفيذ، من تلك المشاريع العديدة التى عكفت" زها " على تصاميمها في الفترة الاخيرة، وباتت اغلبها رسوما ورقية غامضة وملتبسة، لم يكن من السهل " قراءتها "، ناهيك عن محاولة تنفيذها. اقف، اذن، في منتصف فضاء متحف " اودغوبغو "؛ مستذكرا " احساسي الاولي، ذلك الاحساس الذي شابته الدهشة، عندما اطلعت لاول مرة، على اسلوب مخططاتها في الثمانينات، واستمرت متابعتي، لاحقا، لنشاطها المهني عبر مقالات نقدية سعيت من وراءها الى اضاءة منجزها المعماري، مقدما اياه الى القارئ العربي، كاسرا، في الوقت عينه، حاجز الصمت الذي لفّ نتاجها في ادبيات النقد المعماري العربي.

ورغم فرادة الحدث التصميمي الماثل امامي، واهميته في المسار التطوري للعمارة المعاصرة، ورغم اني بتُّ شاهدا ومستخدما في آن، لتلك العمارة المثيرة لنقاشات صاخبة؛ فقد وددت ان استثمر وجودي الفعلي، غير الافتراضي، في فضاء المتحف الواقعي، لاختبار صدقية اطروحة عمارة التفكيك، التى تعتبر " زها " واحدة من ممثليها الاساسيين، بقراءة " نص " عمارتها باسلوبين، احدهما يقف بعيدا عن الانقياد لتبعات ضغوط التصورات

العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

المسبقة، والتسليم بصوابية مناهج النقد الحديث المفسرة (والمبررة.. ايضاً) لتلك العمارة؛ والاسلوب الثاني الاستعانة باطروحة التفكيك، وما تفرزه من مفاهيم غير مسبوقة، تؤسس لعمارة مخالفة: عمارة ما بعد الحداثة. بكلمات أخرى، نشدتُ تعقب عمل عواقب الفكر التصميمي الذي تظهره رسومات تخطيطية ذات نفس تشكيلي ملتبس، كانت دوما تتجنب الالتزام بمعايير القراءة المبسطة.

ويتعين عليّ قبل الشروع برصد التأثيرات الحسيّة التي تولدها عمارة المبنى، ان اذّكرّ بمسار التصميم ومتطاباته. ففي مارس من عام ٢٠٠١، نظمت وزارة الثقافة الدانمركية مباراة معمارية مغلقة لتوسعة " متحف اودغوبغو ". وقدرت مساحة التوسعة بـ ١,١٥٠ مترا مربعا لاضافة قاعات عرض جديدة، منها ٢٥٤ مترا مربعا مخصصة الى المعارض الخاصة، ومثلها من الامتار لعرض المقتنيات الدائمية للمتحف، كما توخت التوسعة تأمين تسهيلات اضافية الى الجمهور وتأمين فضاءات الى بهو المتحف، بالاضافة الى تأمين ٢٢٠ م٢ مخصصة الى فضاءات مقهى مع خداماته، و قاعة متعددة الاغراض.

دُعيت سبعة مكاتب استشارية للمشاركة في المسابقة المعمارية، منها ثلاثة مكاتب دانمركية (بضمنهم مكتب هنينغ لارسن – معمار الدانمرك الاول، ومصمم مبنى وزارة الخارجية في الرياض بالسعودية ١٩٨١-٨٤)، ومكتب " زها حديد معماريون" من لندن، ومكاتب من فرنسا وهولندا والمانيا. ومنحت لجنة التحكيم بالاجماع، في ٢٨ ايلول ٢٠٠١ مقترح " زها " المرتبة الاولى " واعتبرته احسن تقديم ضمن التقديمات السبعة، واوصت بتنفيذه على ان يراعي التصميم مقترحات اللجنة، فيما يخص النواحي الوظيفية والتقنية. وفي ٦ تشرين الاول ٢٠٠٣، تم وضع حجر الاساس للمبنى ايذانا ببدء عمليات التشييد، التي اكتملت بافتتاح توسعة المتحف في ٣٠ آب < اغسطس > ٢٠٠٥، كما اشير سابقاً.

لا يشعر المرء وهو داخل " حيز " توسعة المتحف الجديدة بان الفضاء الذي يحيطه هو فضاء مألوف وعادي؛ وفقا لاشتراطات مفاهيم الاسلوب الاول، الذي حددنا خصائصه توا. ومرد هذا الشعور " الغريب " يعود الى اسلوب وضعية العناصر التركيبية واشكالها التي تغلف ذلك الفضاء وتحدده. فليس ثمة " الواح " جدران في كل التوسعة تنهض باستقامة. وماعدا استواء ارضية فضاء قاعات العرض (التي يصل الزائر الى اقسامها،ايضا، عبرمراقي بارتفاع خفيف)، فان عناصرالتوسعة الانشائية، بضمنها سطوح السقوف المائلة، تخلو تماما من حالة استخدام زوايا قائمة، تعبيرا عن تغاضي المصممة وانكارها " لولع " الاخرين في انتقاءهم و <.. اكتفاءهم > بزاوية واحدة ووحيدة، هي زاوية ٩٠ درجة، من مقياس مجموع ٣٦٠ زاوية أخرى تعرفها الهندسة الاقليديسية المألوفة، كما تصرح بذلك المصممة جهارا ومرارا.

تخلق طبيعة الفضاء المصمم احساسا حافلا بالتشويش والارباك لدى المتلقي، مقارنة مع تصوراته المسبقة عن طبيعة حجوم الاحياز المعتادة. فلا يعرف على وجه الدقة حدود وابعاد الفضاء الذي يتحرك فيه؛ كما ينتج عن تماثل سماكة الجدران الحاملة مع ثخانة القواطع الفاصلة،التي تقطع الفضاء بشكل اعتباطي ومفاجئ، ينتج فقدان امكانية التوجية او الدلالة في تلك الاحياز،الامر الذي يفضي الى الاحساس بالمتاهة، رغم صغر تلك الفضاءات وتواضع ابعادها. كما يترك الممر الطويل نوعا ما، الرابط بين بهو التوسعة الجديد وفضاءات المقهى والقاعة المتعددة الاغراض (والتي ستدعى الان " قاعة زها حديد "، اكراما للمعمارية المعروفة)، يترك احساسا مربكا لجهة عدم تيقن الزائر فيما اذا كان لايزال يسير داخل الحيز المصمم ام خارجه، بسبب نوعية القرار التصميمي الجرئ الذي يجعل جانب الممر باكمله من الاعلى وحتى الاسفل مزججا وشفافا مكتنزا باشكال القواطع ذات الخطوط المائلة.

لا تمنح المصممة زائر المتحف خيارات عديدة لجهة تهيئته نفسياً ومكانياً لحدث العبور من المبنى الجديد الى القديم. فالاتصال بينهما يتم بغتةً : سريعا ومفاجئاً؛ لا يترك للزائر فرصة التأقلم مع تغاير اجواء فضاءات نوعية العمارتين المتناقضتين والمتجاورتين. ويذكر صدفوية اسلوب تلاقي الجديد مع القديم في مبنى متحف " اودغوبغو " بالتصاق خرطوم المسافرين الناقل مع طائرة جاثمة. ويتعزز حضور هذا الشعور من خلال قرار المصممة مدّ كتلة جانبية من " جسم " المبنى الجديد نحو القديم، وتعليقها بتفريغ ما حولها من بناء، وحتى حفر اسفل ذلك الامتداد الكتلوي، والذي توظفه المصممة كمدخل خدمي وخاص لقسم الخدمات الواقع في طابق التسوية.

ويظل، في رأي، الجهد المبذول في تصميم قسم الخدمات جهدا متواضعا، ولاسيما ما يخص فضاءات خدمات المقهى كالمطبخ وملحقاته، التي لم يعرها التصميم اهتماما زائدا، فجاءت حلولها غير مكتملة، وفضاءاتها ضيقة ومحشورة ومتسمة بعدم الكفاءة الوظيفية. ولا ادري، لماذا ذكّرتني " حيرة " عامل المطبخ، ذي الملامح شرق اوسطية الذي قابلته في الاسفل، عند المطبخ، اثناء تجوالي في المبنى، واستغرابه لدوافع تصميم مثل هذه الاحياز غير المريحة والمجحفة بحقه، ذكرتني " بعذابات " احياز غاسل الصحون بطل رواية < Down and Out in Paris and London > لـ " جورج اوريل "، التي ترجمها سعدي يوسف بعنوان " متشردا في باريس ولندن "!. لم اشأ ان اخبره بان صاحب التصميم، ربما يكون احد مواطنيه، وتركته يتحدث مع زميله الدانمركي، الذي افصح الاخير صراحةً عن عدم " سعادته " للعمل مع هكذا احياز!.

بيد ان انجاز التصميم الحقيقي ما فتأ يكمن في نوعية اختيار المعالجات الكتلوية الخارجية لتوسعة المتحف، وتحديد اشكالها الملتوية الانسابية وتموضعها في الموقع المختار. وربما كان تحقيق صياغات كتلوية خارجية نادرة في لغتها المعمارية، هو الباعث الرئيس لخلق مثل الفضاءات الداخلية التي رأيناها سابقا والمتسمة على قدر كبير من اللانظلم والتشويش الهيئاتي.

لا تود تكوينات كتل توسعة المتحف، المرئية بوضوح على خلفية المشهد الحدائقي المحيط بها، ان تنقاد لاية مرجعية " فورماتوية " سابقة، ذلك لانها تتوق لتأسيس ذائقة جمالية جديدة، ذائقة معتمدة في خصائصها على قطيعة معرفية تامة، لما كان يعرف بجماليات الحداثة. ومع ان القطيعة قائمة بين ما كان مألوفا وشائعا، وما هو مرئي؛ فان الذاكرة البصرية ما انفكت تعمل على تجميع تماثلات تصميمية، غايتها تبيان اهمية الحدث المرئي، والمقارنة فيما بينهما، بحيث تكون عمارة التوسعة احد طرفيها، والاخر مثال مستقى من احداث معمارية بالغة الاهمية، ان كان لجهة مناسبة ظهورها، ام لجهة لغتها التصميمة ذات النفس الاستثنائي الحافل بالفرادة.

وفي هذا المجال، تُستحضر عمارة " الجناح الالماني " في معرض برشلونة الدولي (١٩٢٩)، والمصمم من قبل المعمار " لودفيك ميس فان ديرّ رو "، لتشكل تماثلا ابداعيا مع عمارة توسعة متحف " اودغوبغو ". فكلا المبنيين، على تباين منطلقاتهما التصميمية، يجسدان تجسيدا بليغاً لانموذجين متقنين لمقاربات معمارية، مافتئت لغتها التكوينية تثير جدلا ونقاشاً واسعين في الخطاب المعماري الحديث؛ لكنهما كلاهما يعلنان بوضوح قطيعة كاملة مع ذائقة فنية سبق وان كانت، قبل ظهورهما، ذات تأثير ونفوذ كبيرين في الممارسة المهنية المعمارية. والفرق البسيط بينهما يكمن في ان عمارة " الجناح " لم يلحظ " ظهورها " يومئذٍ احد من النقاد المعمارين المعروفين، كما لم يتعاطف معها جمهور المعرض العريض؛ في حين تحظى عمارة " التوسعة " على قبول ايجابي من النقاد وعلى جمهور متعاطف، ومبهور كثيرا بهيئات كتلها غير العادية، هذا عدا من ان عمارة التوسعة، وبفضل الميديا المعاصرة قد حازت على شهرة واسعة في اوساط دانمركية عديدة، حتى قبل ان يزور البعض موقعها ميدانيا ً.

ان اقتصار ادراك عمارة توسعة متحف " اودغوبغو "، وفهمها في ضوء مجموعة من قيم مألوفة ومبادئ معروفة تنساب من نبع مرجعية جمالية محددة، لا يمكنه لوحده ان يعتبر امرا وافياً وموضوعيا؛ الامر الذي يستدعي الاستعانة، هذه المرة باشتراطات الاسلوب الثاني لقراءة منجز العمارة المبني؛ ذلك لان ما نراه هو ممارسة تطبيقية فريدة تطمح لان تعكس مفاهيم فلسفية متميزة ومعاصرة في آن. وهو ما يبرر الزامية وجوب حضور الجانب الفكري جنبا الى جنب تراكيب العمارة المرئية، حتى يستقيم ادراك تلك العمارة وفهم بواعث اشكالها. بمعنى آخر، تستحث فعالية ادراك عمارة التوسعة الى الاهتمام لحالة الحضور، الحضور المادي للمبنى،، كما تتطلب تلك الفعالية الانتباه الى الغياب، المعبر عنه بمفاهيم وقيم فكرية. وبهذا فان " زها " تحيلنا الى التناص " الدريداوي " (نسبة الى جاك دريدا– فيلسوف التفكيك)، فنصها المعماري المرئي لا يقتصر على الملاحظ الحاضر، وانما يكتمل باشتراطات جمالية وفلسفية غائبة.

من جانب آخر، تسعى المصممة الى تحميل مبناها نوعا من القطيعة التمايزية، قطيعة بين مضمون المبنى كمتحف، وبين شكله كهيئة عاكسة لذلك المضمون.

اي ان ثمة نزوع للفصل بين الدال والمدلول، او ما اصطلح على تسميته من قبل واحد من اشهر المعماريين المنظرين لظاهرة العمارة التفكيكية " بيتر ايزنمان Peter Eisenman " بـ " الازاحة Displacement "؛ وهو مفهوم يتطلع نحو نظام يكفل " خلع " الناتج " المعماري من موضعه Dislocate. لكن الوصول الى تلك الحالة " التفكيكية "، مرهون بفصل الاشياء، وعدم التعاطي معها كمقابلات ثنائية، كالمعنى والوظيفة، والمعنى والانشاء، والمعنى والشكل. ويتم ذلك، كما يقترح علينا " بيتر ايزينمان "، منظومة فكرية تسهل حدوث الانقطاع، من خلال ما يسمى باعادة التفكير Rethinking، او توظيف القراءة الخاطئة Misreading؛ عندها يمكن للعمارة ان تزيح معنى الوظيفية من هدفها، او المعنى الجمالي، اوحتى مفهوم الاحتواء الملاصق دوما لها. ولهذا فان المصممة غير معنية هنا في التوسعة، باستعادة " اميج " مألوف للمتحف وتقديمه للمتلقي. وطبقا لتلك الرؤى، فان مفهوما خاصا سيطال معنى الصدفة Chance، اسقاطاته التطبيقية في العمل المعماري تقتضي حضور نوع من الهندسية الاخرى، هندسية تقبل وجود الانحرفات او التشوهات في المنجز المعماري، وهو ما نجده مجسدا، بشكل واضح، في قرارات " زها " التصميمة، المشكلة للهيئة العامة لمبنى توسعة المتحف.

وفي الاخير، فان مانشاهده في توسعة متحف " اودغوبغو " من عمارة ذات اشكال خاصة غير عادية، وربما غير مفهومة، ما هو الا تمرين تصميمي مثابر، يتوق لتأسيس مصفوفة قيم معمارية معينة، ليس لها اية علاقة بالمنظومة الفكرية التي اعتدنا عليها عبر قرون من النشاط المعماري والفكري. كما ان الوجود الواقعي للمرء داخل المبنى او خارجه، لا يعني شيئا كثيرا لجهة فهم العمارة المرئية، ما لم يرافق ذلك الوجود امتلاك شحنة معرفية طازجة من الافكار الحداثية،او بالاحرى مابعد حداثية، تسهم في اضاءة النص المعماري " المقروء " حيزّيا وكتلويا ً.. وجماليا ً بصورة واضحة ومتكاملة.

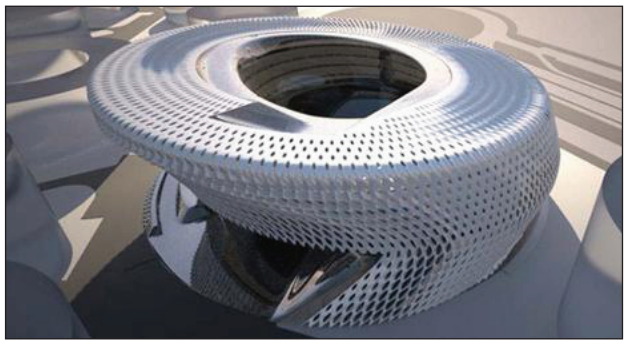

العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

نزيهة سليم كما عرفتها

خالص عزمي

أربعة اولاد وبنت واحدة ؛ جميعهم يتشابهون في السحنة فلا تكاد تفرق واحدا عن الآخر في المظهر الخارجي ؛ شعورهم سوداء مجعدة ملتفة على بعضها كأنها حزمة متشابكة ؛ وجباههم عالية الوسط منبسطة على الجانبين ؛ اما أنوفهم فضخامتها مشهود لها ؛ بل هي نسخة طبق الاصل مما كان يتباهى به والدهم بقوله (شم ألانوف) . أما اصواتهم المتهدجة المتلعثمة احيانا و الضاحكة كثيرا فهي تمنح المصغين رقة وتقربا .

كان بيت الفنان الحاج (محمد سليم علي الموصلي) ؛ يعج بالحركة ؛ لما عرف به رب الاسرة من كرم واريحية ؛ .. حدثني سعاد الرسام والمصمم البارع عن اسرته مرة فقال : (لايكاد المرء يدخل بيتنا القديم الا ويرى بعض الفنانين من زملاء الوالد في الجيش ؛ كمحمد صالح زكي وعاصم عبد الحافظ وعبد القادر رسام ؛ او حتى من الجيل التالي لهم كفتحي صفوت وناصر عوني ، بل ولوالدي علاقات متينة ببعض كبار قراء التراتيل الدينية و المقامات العراقية؛ ولطالما رحبنا بهم في بيتنا) .

فتحت نزيهة عينيها على دنيا زاخرة بالحيوية والتعاطف الاسري والمؤطرة بالوان من العشق الحقيقي للفنون ؛ وحينما اختارت الاسرة بيتا حديثا في محلة الوزيرية عاشت نزيهة واشقاؤها بذات العمق من المحبة والتواصل والألفة . في بداية الاربعينات ؛ اصبح ذلك البيت أكثر تطورا مع صيغ الحياة العصرية ؛ حيث حل الراديو الخشبي من نوع (ويستنجهاوس)على الاسرة كغيث ربيعي منعش ؛ واضافة الى ذلك ؛ فقد افاض جواد على اسرته هو ايضا من ينابيع فنه حينما راح يعزف على الجيتار الحانا من تأليف فنانين عالميين وبخاصة ما حفظه من موسيقا (الفلمنكو) المشهورة في جنوب اسبانيا.

في عام ١٩٤٧ أكملت نزيهة دراستها في الرسم وتخرجت في معهد الفنون الجميلة ؛ واتيح لها ان تغادر الى فرنسا لاكمال تعليمها شأنها شأن بعض الذين سبقوها ؛ كفائق حسن ؛ وجواد سليم او كالذين زاملوها في تلك الفترة مثل جميل حمودي وحميد المحل واسماعيل الشيخلي ... الخ ؛ وبعد دراسة جادة ونجاح متفوق في فن الرسم ؛ عادت الى بغداد عام ١٩٥١ لتندمج في التدريس ؛ ولتتعرف بشكل مباشر على نشاطات التجمعات الفنية ؛ كأصدقاء الفن ؛ والرواد ؛ والانطباعيين ؛ و جماعة بغداد للفن الحديث ؛ فتجد نفسها الاقرب فنيا وتراثيا الى التجمع الاخير الذي كان يقوده شقيقها المثقف المبدع جواد سليم ؛ فشاركت بكل طاقاتها في مختلف المعارض التي اقامتها تلك المجموعة الفعالة النشطة .

اما على الصعيد الاسري فقد كانت قريبة جدا من جميع اشقائها في حياتهم العائلية والاجتماعية ؛ ومن نماذجه هذه اللمحة الخاصة التي لمستها شخصيا : .

في جلسة فنية أدبية من عام ١٩٥٣ اهداني جواد سليم لوحة تخطيطية فريدة بعنوان (الرحيل عن الوطن) لتأخذ مكانها على غلاف مجلتي (الاسبوع) (١) حيث خصص العدد لمحنة اللاجئين الفلسطينيين ؛ وهو ما تبرعنا بريعه لرابطة المناضل الجريح في فلسطين (٢) ؛ وفي ذات الفترة ؛ نال جواد الجائزة الاولى عربيا ؛ والسادسة عالميا ؛ وذلك عن عمله النحتي المشهور (السجين السياسي) من خلال المسابقة الدولية التي اقيمت في (تيت كلري) في لندن ؛ فوجدتها فرصة ثمينة لكي افرد له في ذات العدد نصف صفحة عليها صورة ذلك الانجاز مع تفاصيل كافية عن المسابقة ونتائجها المشرفة للعراق . وازاء هذا دعانا جواد الى بيته لقضاء سهرة كريمة بتلك المناسبة ؛ وما كدنا نأخذ اماكننا ؛ حتى دخلت نزيهة وقد بان عليها التعب والارهاق من جراء انجازها لوحة للمعرض القادم ؛ وان هي الا لحظات حتى تحولت نزيهة الى شخصية مرحة لطيفة النكتة نشطة الحركة ؛ بل وتولت ايضا مهمات الضيافة الاساسية لوحدها لكي تفسح المجال لزوجة اخيها الفنانة لورنا لتعزف على الكمان مشاركة زوجها جوادفي عزفه على الجيتار .

وأكثر من ذلك هو ما لاحظته لاحقا اثناء ترددي وزوجتي المستمر على بيت نزار في المنصور فقد كنا قريبين بصداقتنا مع اسرته حيث وجدتها . ولاكثر من مرة . مندفعة وسباقة بحنان متميز في مشاركتها باعياد ميلاد شقيقها نزار ؛ او زوجته (جنهلد) او اولاده (رشاد وسليم وريا وربا) . وما رسائلها المتبادلة مع اشقائها ؛ ألا صورة حقيقية عن مدى اصالة و تلازم هذه الاسرة النموذجية في علاقاتها الحميمية في السراء والضراء وعبر مختلف المناسبات (٣)

ان ارتباطها المتين باشقائها الذي اشرنا اليه ؛ لايعني بتاتا عدم استقلالية شخصيتها في اتخاذ القرارت الخاصة بمواقفها (كما تبادر للبعض)؛ والحادث الذي أروي واقعته هنا مثال واقعي على متانة قناعتها وبمعزل عن اي تأثير جانبي آخر : .

تقرر عقد اجتماع لبعض الفنانين التشكيليين في دار الراحل الفنان خالد الجادر يوم ١٧ /١/ ١٩٥٥ لغرض الاتفاق على تأسيس (جمعية الفنانين العراقيين) وقد لبى حضور هذا اللقاء التأريخي عدد من ابرز الوجوه الفنية وكان عددهم (١٦) فردا ؛ كان من بينهم ثلاث سيدات هن ؛ نزيهة سليم و زوجة محمود صبري ؛و عالية القره غولي ؛ وبعد نقاش وتداول وافق المجتمعون على التقدم الى الوزارة للموافقة على اجازة الجمعية . . وكان الملفت للنظر هو توقيع نزيهة سليم على المحضر لقناعتها بما جاء فيه ومن دون الرجوع الى اشقائها الفنانين (سعاد ؛ جواد ؛ نزار) كما توقع الآخرون (٤)

لقد كانت نزيهة سليم شديدة الالتزام بالمشاركة في مختلف معارض الرسم داخل العراق او خارجه ومع انها قضت زمنا طويلا في اوربا ؛ الا انها بقيت نبعا صافيا من ينابيع العراق في الفكرة ؛ والاسلوب ؛ واللون ؛ فلو نظرت الى لوحاتها التي امتلأ بها بيتها في الوزيرية وفاض على مئات المعارض ؛ لوجدتها متفردة اليس في اختيارها للمرأة العراقية في لوحاتها وحسب ؛ بل وفي مختلف مواضيع الطبيعة او المحلات البغدادية او الحياة الاسرية او الموروث الشعبي حيث اضفت على كثير من لوحاتها الوانا زاهية براقة نابعة من ذاتها وخزينها المتراكم ؛ وان براعتها في كل هذه الاوجه يضاف اليها اجادتها المشهورة في رسم لوحات (البورتريت) . ومنها تلك اللوحة الفريدة التي رسمتها لزوجتي عام ١٩٩٢ ووشحتها بتوقيعها.. والتي ما زلنا نحتفظ بها فخرا واعتزازا في صدر غرفة الجلوس.

كان آخر لقاء لي مع نزيهة سليم وانا اودع الوطن ؛ في ذات البيت من حي الوزيرية ؛ . . والذي التقينا به كثيراكما أسلفت ؛ كانت هذه الزيارة (الوداعية) مع صديقي الاقتصادي الأكاديمي الدكتور طارق العزاوي والذي كانت اسرته هو الآخر مجاورة لآل سليم في ذات الحي ؛ ما كدنا ندخل البيت الغارق باللوحات المنجزة وتلك التي اجلت موعدها مع الفرشاة الى زمن مجهول ؛ حتى التقيناها (مع شقيقها الفنان الكبير سعاد سليم)؛ وهي لاتستطيع ان تتحرك الا بصعوبة بالغة من كثرما عانت من اوصاب وامراض ومحن ؛ في تلك اللحظة المؤلمة وانا انظر اليها وهي مهدمة متداعية : مرت على الذاكرة صورتها مع ست من زميلاتها (فراشات الخمسينات) وهن بملابسهن العصرية الملونة الزاهية لتأدية دورهن كتشريفات في حفلة البولو التي اقيمت برعاية الملك فيصل الثاني في بداية عام ١٩٥٧والتي خصص ريعها لدعم جمعية الفنانين العراقيين .

وقبل ايام ؛ ودعتنا الفنانة الكبيرة الرائدة نزيهة سليم ؛ بعد ان تركت أورادها الزيتية الملونة وهي تنثر شذاها على النادر مما تبقى من لوحاتها اللائذة بالطبيعة الخلابة ؛ والهاربة الى عوالم الحرية ..بعيدا ... بعيدا ...عن وحوش غابة النهب.

---

(١) ـ مجلة الاسبوع العراقية . العدد١٩الصادرة بتاريخ ١٥ نيسان ١٩٥٣ .بغداد

(٢) خالص عزمي.صدى السنين ؛ رابطة المناضل الجريح.الحوار المتمدن العدد (٢٧٤) بتاريخ ٢ / ٨ / ٢٠٠٥

(٣) خالص عزمي.نزار سليم رساما. مطبوعات وزارة الثقافة والاعلام.١٩٨٨

(٤).موقع جمعية الفنانين التشكيليين العراقيين ؛ حكاية التأسيس

عراقيات
من زمن التوهج
العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

البياتي يتحدث عن نازك :
افكارها ثابتة .. ولاتقبل المناقشة

تكبرني نازك الملائكة بثلاث او اربع سنوات حيث تخرجت في دار المعلمين العالية ايضا قبل دخولي اليها بثلاث او اربع سنوات لكنها في انتمائها تنتمي الى بغداد اذ انها من عائلة دينية ادبية معظم افرادها يكتبون الشعر فوالدها صادق الملائكة (رحمه الله) كان استاذي في الاعدادية المركزية أي قبل دخولي لدار المعلمين العالية وكان يكتب الشعر ويعشقه وهو الذي حببني في كتاب الاغاني لابي فرج الاصفهاني اذ كان يقرأ لنا فصولاً كثيرة من هذا الكتاب .

في مثل هذا الجو عاشت نازك الملائكة ضمن اسرة محافظة مهتمه بالشعر والادب واذكر انه بعد سنوات طويلة . وعندما كنت ذات مرة في الكويت بدعوة من رابطة الادباء الكويتيين تحدثت عنها في الندوة التي اقيمت لي ففرحت فرحا شديدا ودعتني الى بيتها هي وزوجها الدكتور عبد الهادي محبوبة،

لبيت الدعوة وكان اغلب المدعوين من الاساتذة العراقيين في جامعة الكويت وفوجئت بانها جاءت وسلمت علي وعليهم ثم اختفت ولم تظهر ثانية على الرغم من انها صاحبة الدعوة يحضرني هذا المثال لاعطي فكرة عن الجانب المحافظ في شخصيتها. هي قارئة جيدة الا ان قراءتها كما اعتقد مثالية وافكارها مثالية كذلك يقترب بعضها من السذاجة وهذا ليس له علاقة بموهبتها اذا عدت الى الرسالة التي ارسلتها لي والمنشورة في كتاب (فتوحات البياتي) وقرأتها ستشعر بما اقول فمثلا وجهة نظرها في الصوفية تنحصر في مفهومها الديني ولاترى اية علاقة للصوفية في الاتجاهات الفلسفية الاخرى بل كانت تندهش وتستغرب كيف يمكن لشاعر مثلي ان يجمع بين اليسارية والصوفية في ان واحد علماً بان الصوفيين كانوا يدافعون عن روح الامة وهذا ما يظهر في شعر جلال الدين الرومي اذ ان اغلب المؤرخين يعتقدون بان اشعار جلال الدين الرومي الصوفية هي التي اججت روح المقاومة لدى الناس الذين صدوا المغوليين والصليبيين.

تعرفت الى نازك في دار المعلمين حيث قمنا انا وبعض الاصدقاء بزيارة الى اسرتها واذكر اننا اختلفنا حين ذاك في كثير من الامور وكما قلت فان افكارها ثابتة لا تتحول ولا تقبل المناقشة ابداً.

وأتذكر اننا تكلمنا حول العروض والايقاع في القصيدة الحديثة ولمست انها تحاسب القصيدة الحديثة المكونة من التفعيلات ومحاسبة الناقد للقصيدة العمودية فتتكلم عن نقصان حركة هنا او هناك وتعتقد بانه لايوجد ايقاع في الشعر العربي انما هناك اوزان الخليل ومن يخرج عليها يكون كمن خرج عن الشعر.

لقد تناولت هذه الناحية في كتابها (عن قضايا الشعر) كما يتناولها عروضي متزمت جداً ولم تفرق بين التفعيلية او الوزن الخليلي وبين الايقاع في القصيدة الحديثة هناك ايقاعات خطيرة موجودة في شعر السياب وكذلك في شعر صلاح عبد الصبور وفي شعري..ولكنها اعتبرت ذلك خارج السياق وخارج الوزن الخليلي وتكلمت في مكان اخر وكذلك في شعر ابي تمام وفحول الشعراء هناك اجازات أي انهم اجازوا ذلك لانفسهم مضطرين من اجل جلال المعنى او جمال الصورة واعني بذلك جواز استبدال همزة القطع بهمزة الوصل.

ماأريد قوله: انها كانت متشددة جداً في ارائها حتى ان كتابها قوبل بتحفظ شديد من قبل المعنيين بالشعر بينما هلل له المحافظون جداً وهذه علامة لم تكن في صالحها.

ابديت اهتماماً كبيراً في شعرها اكثر من اهتمامي بشعر السياب ذلك لان لغتها صافية وكانت قصيدتها رومانسية وليست كرومانسية الشعراء الانكليز الرجال مثل بايرون بالقريبة الى شعر الشاعرات الرومانسيات القديمات وشعر المرأة البريطانية الرومانسي يختلف عن شعر الرجل فهو يهتم بالقضايا الصغيرة وبالشؤون الذاتية بينما تجد مجتمع البيت والمجتمع الاسري والذات والمرآة والصوف والابرة وكل شؤون المرأة مجتمعة في شعر المرأة الرومانسية.

لقد اعجبتني هذه اللغة المصقولة التي هي حديثة فعلاً بعكس لغة السياب مثلاً الذي كان في القصيدة التي يتمرد فيها على العامود يكتب بلغة كلاسيكية كلغة ابي تمام على سبيل المثال أي لم تتبلور لديه لغة خاصة كان لنازك في بدايتها لغة خاصة تماماً لكن كنت احياناً عندما اقرأ هذه القصيدة او تلك اقول:

وكتبت هذه القصيدة بالشكل العامودي لما فقدت شيئاً اتساءل لم التشديد؟

عندما اقرأ بعض شعرها وليس كل شعرها طبعاً أي انه كان يمكن ان تكتب هذا الشعر بطريقة عامودية وفعلاً كانت هناك قصائد تتناول شؤونها الذاتية بالشكل العامودي انا افضلها على القصائد الاخرى التي لم تلتزم فيها بعدد التفعيلات العروضية يعني هي مدرسة خاصة كما اعتقد انها تختلف عن مدرسة الشعراء الرومانسيين الرجال كعلي محمود طه و ابراهيم ناجي وتختلف عن فدوى طوقان اختلافاً كبيراً اذ ان فضاء فدوى طوقان اكبر والافاق التي عبرت عنها اوسع ،فدوى خرجت من الذات وعبرت عن قضايا كثيرة أي اقتربت بامكانياتها الشعرية من الشعر الذي لايمكن ان نصنفه الى شعر رجال ونساء بينما نازك بقيت تكتب شعراً اقرب الى طبيعة النساء وهذه ميزة لها وليست عيباً فيها وهو شيء جميل ونحن بحاجة الى مثل هذا الشعر.

ا ستمر ت نازك في الكتابة الا ان ماجرى في العراق وفي العالم العربي من انقلابات وثورات اضعف صوتها ثم بدأ يختفي شيئاً فشيئاً .. لقد كانت نازك في بداياتها عظيمة حتى مطلع السبيعينيات ولكنها لم تواصل الرحلة وانقطعت عن الكتابة الشعرية وبدأت تكتب في قضايا سياسية فقد صدر لها كتاب لا اتذكر عنوانه بالضبط عن التجزئة في الوطن العربي او شيء من هذا القبيل أي انها صرفت اهتمامها عن الشعر وبدأت تنتج وتكتب عن القومية وماشابه ولكن تناولت ذلك ايضاً بشكل تقليدي كلاسيكي مثلما تحدث بعض القوميين في الاربعينيات (نفس الشعارات الساذجة) وعلى الرغم من فهمها العميق الا انها اكتفت بالقليل او بالاحرى لم تكن لديها مغامرة وجودية لغوية بل اكتفت بحافة الاشياء حافة التجديد واجادت اجادة كبيرة حقيقية في هذا المجال انا اعتبرها شاعرة كبيرة بل اهم شاعرة عربية في بداياتها ،دواوينها الاولى (الاول والثاني وحتى الثالث) من اهم دواوين الشعر العربي ولو استمرت بالتطور وفي ارتياد افاق جديدة لبلغت شأناً كبيراً للمرة الاولى في تاريخ الشعر العربي ولكن مع الاسف كما ذكرت انها لم تواصل الرحلة.

نشر هذا المقال في مجلة الف باء عام 1977

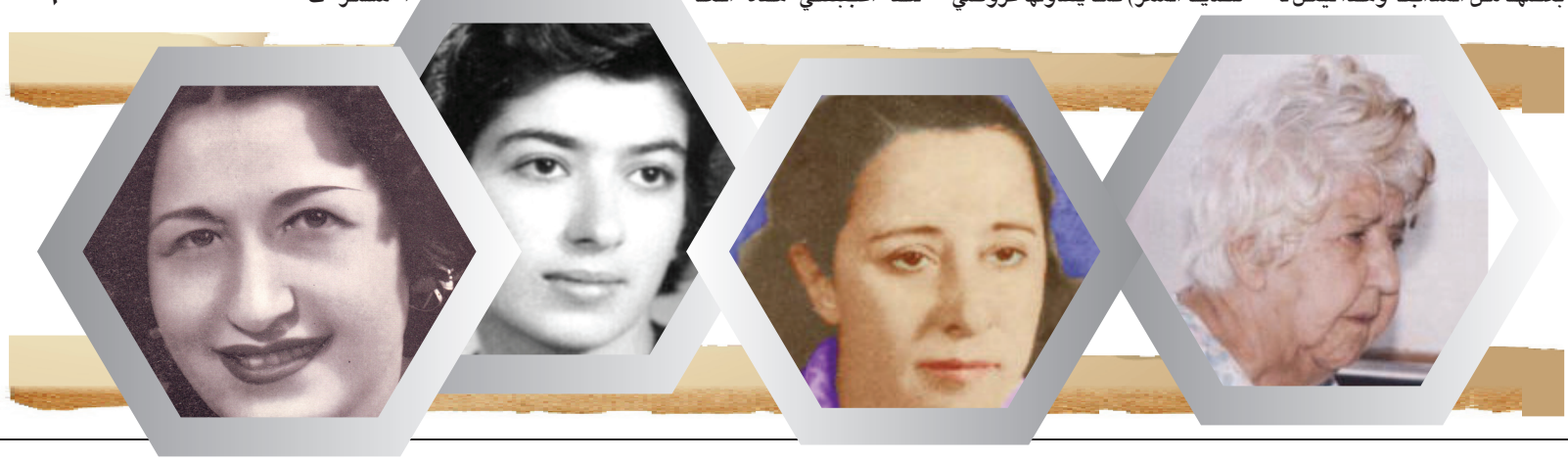

العدد (2389)
السنة التاسعة
الخميس (9)
شباط 2012

ما لايعرفه الناس عن عفيفة إسكندر

قحطان جاسم جواد

حين اخترت الفنانة القديرة (عفيفة إسكندر) لتكن موضوعة كتابي الاول (عفيفة.. حياتها واسرارها الفنية) لم اكن على خطأ بل كان اختياراً دقيقاً جداً لما لها من اهمية وانجازات كبيرة في حقل الغناء العراقي بالرغم من إهمال النظام السابق لها وتعمده في تجاهلها مما حدا بها الى الاعتكاف في منزلها واعتزال الفن ومقاطعة الإعلام!

واتذكر يوم بدأت في كتابة ملف عنها في مجلة ألف باء استغرق نشره بحدود ثلاثة أشهر او ١١ عدداً اسبوعياً من المجلة يومها قال لي احد رجال الامن ممن يشرف على الاعلام لماذا اخترت هذه الفنانة؟ ألاتعرف بأن الحكومة لاتودها؟ فضحكت وقلت له إنها فنانة عظيمة ولديها من الفن مالم تجده لدى غيرها واختياري كان فنياً بحتاً وليس له علاقة بالسياسة وقد عرفت في ما بعد ان كلامه كان تهديداً او محاولة لوقف نشر الملف من قبل النظام السابق!!

عفيفة اسكندر صوت مغرد وجميل.. وهي قلب الجمال النابض.. أودعت يد القدر فيها اوصافاً بدنية وخلالاً نفسيه.. فهي لاتستطيع ان تخفي محاسنها بل تبدت وتجلت في أكمل جمال في نظر عشاق الجمال.. جمال ساحر من صنع الخلاق لامصنع الحلاق.. عفيفة مطربة كبيرة قدمت للاسماع وللجماهير التي احبتها وللغناء العراقي اروع الاغاني واجمل القصائد.. وهي ناحية تميزها عن بقية المطربات.. اذ انها قدمت اكثر من خمسين قصيدة مغناة.. والقصيدة من اصعب انواع الغناء.

والذي عاصر فترة تألقها وعاش سماع حلاوة صوتها عبر مسيرتها الطويلة يعرف الكثير عن فنها وسيرتها ودورها الفني في حياة العراقيين، وعفيفة اسكندر لون فريد في الغناء لايضاهيه او يقترب منه اي لون آخر من ألوان الغناء العربي، وهو ايضاً لون محير فلا تدري هل هو مونولوج او غناء خفيف او غناء عاطفي.. او هو كل ذلك معاً!

اما صوتها واداؤها فيستقلان بمواصفات مميزة وخصائص متفردة ويبتعدان ابتعاداً غير مألوف عن صوت واداء اية مغنية في الوسط الغنائي العربي.

من أين استقت شخصيتها الغنائية؟

أما من اين استقطت المطربة عفيفة اسكندر شخصيتها الغنائية المستقلة، فإنه سؤال صعب لايمكن الرد عليه بسهولة الا اذا عدنا الى الموهبة لنعزو اليها قدرتهاعلى تكوين هذه الشخصية الصوتية الفريدة، ولان عفيفة اسكندر غنت الشعر فان الكلمة عندها تخرج صافية بلفظها وفصاحتها وموسيقيتها وهي في كل ماغنت شعراً او زجلاً اقرب الى الاكتمال اللفظي والاحساس بالكلمة وحسن الاختيار الذي تبدو فيه ملكتها على اشدها في رهافة الحس ورقة الشعور، وهي لم تكن تحسن اختيار الشعر او الزجل حسب بل كانت فطنتها ودرايتها وتذوقها الموسيقي تمتد الى اللحن كذلك.

والمطربة (عفيفة اسكندر) تختار ألحان اغانيها بدقة شديدة وقد رفضت كثيراً من الالحان حتى من اولئك الذين كانوا يقفون في الصدارة (من ملحني القطر) ولم تقبل لحناً قط من اي ملحن مهما علا قدره إلا اذا كان منسجماً مع صوتها ولكأنه قد قيس عليه.. وعلى اثر موقفها هذا من الالحان.. قال عنها العديد من الملحنين والمؤلفين ان اصعب مغنية هي عفيفة اسكندر.. وهي صعبة فعلاً لانها كانت تدقق في الاختيار ولاتغني اي لحن او اي كلام.

البداية من أربيل

ظهرت لاول مرة على المسرح في ملهى صغير بمدينة اربيل في اواسط الثلاثينات.. وكانوا يسمونها في تلك الفترة بـ(جابوكلي) وتعني المسدس السريع الطلقات لانها تغني بسرعة بسبب صغر سنها وعدم نضوج صوتها الا ان الأمر تغير لاحقاً بعد ان اصبحت لديها الخبرة وكذلك التزامها من قبل مجموعة من خيرة رواد التلحين في العراق حيث قدمت العديد من الاغنيات الجميلة التي تشكل الان ثروة كبيرة لتراثنا الغنائي، وابرز من تعاملت معهم من الملحنين الفنان (سمير بغدادي) او وديع خوندة ورضا علي وناظم نعيم وكريم بدر واحمد الخليل وعباس جميل وياسين الراوي وخزعل مهدي وسواهم.

فرقتها الموسيقية

وحتى فرقتها الموسيقية التي تصاحبها في الغناء تختارها بدقة وعناية كي تتناسب مع صوتها

وطريقتها في الاداء وحفلاتها كانت اسبوعية وتتضمن في كل حفلة (وصلتين) بحدود ساعة لكل وصلة غنائية وفي بداياتها الاولى كانت فرقتها تتكون من عناصر فنية ثم تركوها وسافروا فبدأت بالتعاون مع مجموعة من الموسيقيين ابرزهم (سالم حسين) و(خضير الشبلي) و(جمال سري) على آلة القانون و(كريم بدر) و(كريكور برصوميان) و(جوزيف حنا) و(جميل بشير) على الكمان و(خضر إلياس) على الناي وعلى العود كان الفنانان (منير بشير) و(روحي الخماش) كما كان الفنان (حسين عبدالله) يشارك في حفلاتها كضابط إيقاع.

ما لايعرفه الناس عن عفيفة إسكندر

وعن الحوادث والمواقف التي لايعرفها الكثير من الناس عن المطربة عفيفة اسكندر نقول ان لها ذكرى مع موسيقار الاجيال (محمد عبدالوهاب) لا اظن انها ستنساها ابداً فقد مثلت معه في فيلم (يوم سعيد) اخراج (محمد كريم) ولحن لها اغنية غنتها في الفيلم عام ١٩٤٠ لكن عند عرض الفيلم لم تقدم الاغنية لان المخرج اضطر الى حذفها مع مشاهد اخرى بعد اكتشافه ان الفيلم قد تجاوز الساعتين وهو وقت طويل ويمله مشاهد والسينما.. ومن الامور الاخرى التي اتذكرها هو لقاؤها مع الموسيقار (فريد الاطرش) والاتفاق بينهما للتمثيل والغناء معه في احد الافلام السينمائية.. وكادت المحاولة تنجح لولا مغادرتها (أي عفيفة) للقاهرة على عجل بسبب التزامها بعقد مع احد الملاهي البغدادية.

اما الفيلم المصري الوحيد الذي ظهرت فيه فهو فيلم (القاهرة.. بغداد) وهو انتاج مشترك (عراقي مصري) وقد كانت عفيفة طيبة القلب وتحمل نفساً زكية وتقدم المساعدة لكل من يطلبها.. لذلك تعاطفت مع العديد من الاسر التي جار عليها الزمن.. حيث قامت بتخصيص مرتبات شهرية منتظمة لهذه العوائل لتمكنها من العيش بكرامة.

قالوا عن عفيفة اسكندر

(استطاعت عفيفة بفضل نباهتها ان تميز بين الغث والسمين، وكانت تختار الذي يروق لها من الشعر الشعبي، ولما شعرت ان هذا الشعر لم يعد يفي بمرامها ركنت الى الشعر الفصيح فأتخذت شعر البهاء زهير رائداً لها وراحت تغني له فكان نصيبها الفوز والنجاح. ومن طبيعتها الفنية انها خلقت مغنية، وانها كالشمعة تحترق لتضيء للناس وآنية تمتلئ ليغترف اصدقاؤها من خيرها وزهرة تتفتح لينتعش من حولها بأريجها ومن طبيعتها ايضاً انها خلقت لتفني حياتها لاجل حياة غيرها وتشقى لتوفر السعادة لاحبابها عبدالكريم العلاف من كتاب –قيان بغداد–).

يقولون ان في حياة كل رجل مهما كانت منزلته وعقليته فراغاً لاتملؤه الا امرأة نمت ونشأت في خياله واحبها عقله الباطن، وقد تمر في حياته الاعتيادية عشرات من النساء من دون ان يملأ ذلك الفراغ، فاذا جاءت المرأة المفضلة التي اختارها العقل الباطن امتلأ الفراغ فجأة فشعر الرجل بطمأنينة من يعثر على الماء في الصحراء.

ولقد ظل هذا الفراغ طويلاً في حياتي على ما ازدحم فيها من ألوان واليأس والقرب والبعد والاتصال والانفصال.

وفي القلب كما يقولون ايضاً سبعة اوتار ولكنها لاتهتز دفعة واحدة الا عندما يجد القلب تلك الانامل الرقيقة التي تضم هذه الاوتار للحظات او لساعات او لايام.

وقد مست (عفيفة) هذه الاوتار دفعة واحدة ذات مرة فرن في القلب ذلك الصدى المتناسق، الحبيب الى النفس ورف الطائر الحبيس منذ سنين طويلة حول الفراغ الكبير فاذا بي امام امرأة من نوع اخر لم اكن اعرفه من قبل.. امرأة جديدة بالنسبة لمن عرفت وقديمة بالنسبة الى الهوى الذي كان يعتمل في صدري نحو المرأة المجهولة او نحو من يملأ ذلك الفراغ الكبير الذي لايملؤه سوى المرأة التي عشقها العقل الباطن وتصورها على هواه.

ويوم جئت من كركوك الى بغداد باجازة قصيرة لم يكن في ذهني شيء عن عفيفة فلم تكن غير امرأة أوغير فتاة تمشي على نغمات القدر الذي ليس لها وليس لنا شأن في التحكم باهوائه.. ولم اكن انا ايضاً غير شاب متحمس للحب وللحياة بكل مافيها من مباهج وافراح وغصص والام وضاقت بي بغداد بيومين اثنين فكدت اعود ادراجي الى كركوك حيث اغرق بين الكتب ورياضة الصعود الى التلال، ولكن القدر امسك بي فجأة ليملأ الفراغ الكبير الذي لم تكن قد ملأته امرأة من قبل وقادت خطاي بشيء من التعسف المبهم نحو الملهى الذي كانت تعمل عفيفة فيه فالفيت نفسي بعد حين امام حالة نفسية غريبة، فقد انسلخت من عمري اعوام من التجربة في ساعتين لا اكثر.

كانت عفيفة يومئذ هادئة وناعمة وخائفة.. كانت اشبه بالارنب البري

(استطاعت عفيفة بفضل نباهتها ان تميز بين الغث والسمين، وكانت تختار الذي يروق لها من الشعر الشعبي، ولما شعرت ان هذا الشعر لم يعد يفي بمرامها ركنت الى الشعر الفصيح فأتخذت شعر البهاء زهير رائداً لها وراحت تغني له فكان نصيبها الفوز والنجاح. ومن طبيعتها الفنية انها خلقت مغنية

النظيف جيء به الى قفص غير مألوف، كانت تحاول ان تبتسم وان تكون طبيعية في حياتها الجديدة ولم يكن هيناً عليها فقد كانت في اخر ادوار المراهقة سهلة للكثير من المطامع والمخاوف معاً.

وكان لها يوم صعدت لتغني صوت عذب صاف يقطعه الخوف ويلجلجه التهيب.. ولا ادري كم كان قد مضى على اول ارتقائها خشبة المسرح الغنائي ولا التاريخ الذي مر على دخولها ذلك الوسط الجديد بالنسبة لحياتها الماضية تلك الحياة التي تمتلئ دائماً بكريات الطفولة وأماني المستقبل الذي كثيراً ما يملأ النفس بالخيبة حين يطيش حلم الزمان قلت لصديق كان معي يومئذ: سيكون لهذه الفتاة الضئيلة ذات العينين النرجسيتين شأن في حياة بعض الناس.

قال: وفي حياتك انت؟ قلت وانا اكتم ألمي: لا أدري.. على انها ستدخل في اكثر من حياة غالية وتستحوذ على اكثر من قلب كبير.

اول مطربة تغني القصيدة

والمطربة عفيفة تعتبر نتيجة لكثرة مطالعاتها للشعر، اول مطربة عراقية غنت الشعر وقدمت مايقارب (٦٠) قصيدة ولم تعرف مطربة عراقية اخرى غنت هذا العدد الكبير من القصائد.. لاسيما وان غناء القصيدة في الغناء العراقي يكاد يكون محدوداً جداً.. وقد غنت لاساطين الشعراء مثل (سناء الملك) و(البهاء زهير) وبشارة الخوري والشيخ علي الشرقي وطبقة الشعراء المحدثين.

وحسب معلوماتي فإن اول اغنية سجلتها للإذاعة عام ١٩٣٧ هي (برهم يابرهوم يابو الجديلة عذبت حالي وايدك طويلة) ثم اعقبتها باغنيتها الثانية (زنوبة) بعدها اتجهت في الغناء الى قطبي التلحين العراقي (صالح الكويتي وداود الكويتي) واشتهرت بسرعة بسبب رصانة صوتها وعذوبته ووقفت بسرعة بمصاف اشهر مطربات ذلك العصر كزكية جورج وسليمة مراد وسلطانة يوسف وصديقة الملاية وزهور حسين.

وقد سافرت الفنانة عفيفة اسكندر الى خارج العراق كثيراً واحيت العشرات من الحفلات الغنائية في امريكا واوروبا ومصر ولبنان وسوريا والاردن.. ولكثرة حفلاتها وحلاوة صوتها وعذوبته فقد لقبتها الصحافة العربية (كالكواكب والاثنين) والمجلات اللبنانية (بمطربة العراق الاولى).

تقييم صوت عفيفة موسيقياً

عفيفة تستشير فضول الذاكرة الفنية لاصول الغناء دون ان تزودها بأي تفسير نفسي ومعرفي.. ففي هذا المحيط الفني يجول المغني وتتفحص الاذواق لذلك بقيت طريقة (عفيفة) في الغناء تحمل نزوعاً نحو التعلق الشديد او الرفض الشديد.. اذ انتقلت حنجرتها الفنية بين الغناء البدوي والغناء الحضري باقتدار وتمكن عجيبين.. وبكثير من دواعي الانشاد الحر غير المقيد..

وعفيفة تستحضر قواها الصوتية في ابراز الاسلوبية التي طبعت غناءها.. فهي تمتلك حضوراً مع تنوعات محدودة.. وتقيد صوتها بإعداد صارم بل تغني بلهجة عراقية مصحوبة باحتياطات حجازية وخليجية تارة اخرى مع اشهار التأثيرات البارزة في الغناء المصري..

وسر صوتها ينبيء عن دخول انتصار في مجال الغناء.. وفنها الادائي توفر على خاصيتين اساسيتين هما العبور الى الاسماع والاستيطان في الذاكرة.. وهذا بحد ذاته يعكس تألقاً للغناء الريفي.. وهو تألق يأتي على اية حال من كونه ينحدر من نوع بيئوي عراقي حميمي.

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
عدنان حسين

مدير التحرير: علي حسين

الاخراج الفني: نصير سليم

التصحيح اللغوي: نوري صباح

طبعت بمطابع مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون

العمة زكية تناشدكم: انتخبوني

علي حسين

في الوقت الذي قرات فيه خبر رحيل المناضلة زكية الزيدي (العمة زكية كما كانت تحب ان يناديها الجميع) شاهدت صورتها وهي تقدم نفسها مرشحة لقائمة اتحاد الشعب.. خبران يحملان من المفارقات والأسى بقدر ماحملت حياة هذه المرأة..

حياة كانت تتجاذب بين القوة المتناهية امام الصعاب وفي مواجهة اعتى الأنظمة الدكتاتورية والرقة حين ياخذك الحديث معها فكأنك تجلس في حضرة عجوز من عجائز الريف ببساطة مفرداتها وبالسخرية المرة التي تختفي تحت الكلمات هكذا كنت أرى العمة زكية وانا أخطو أولى خطواتي باتجاه مسرح بغداد لالتقي ببعض الأصدقاء او لاكمل حواراً انقطع مع (الخال) خليل شوقي، ..في ذلك المكان الذي اصبح اليوم جزءاً من ماض جميل التقيت المرة الأولى مع العمة زكية امرأة لاتوحي ملامحها وحركاتها بانها ممثلة وانها بعد دقائق ستصعد خشبة المسرح لتتقمص شخصية من شخصيات يوسف العاني اوغائب طعمة فرمان ، في الحالتين مع زكية الإنسانة وزكية الممثلة نجد أنفسنا في حضرة امرأة اختصرت حياتها بكلمتين الشجاعة والبساطة.

×××

المرة الأخيرة التي شاهدت فيها العمة زكية عبر صور أرسلتها إحدى الزميلات من السويد شاهدتها تسير في شوارع لم تالفها غريبة ومغتربة وهي تفتش عن مجتمع دافئ ومكان أليف وزمن سوي يعترف بالإنسان والضحك وحرية اللسان وشقاوة الأصحاب وترف الأمسيات.. في سنواتها الأخيرة تسكعت العمة زكية في شوارع الغربة ولم تكن تعرف لاهي ولا نحن محبوها ان النهاية ستكون في سطور قليلة اختتمت بها حياة امرأة وفنانة رفضت الاستسلام وغردت خارج السرب.. في الصور على الفيس بوك وانا اطيل النظر لملامح وجهها المحبب الى النفس اقرا فيه رحلة التعب والمواجهة ممتزجة بأفراح ومسرات الماضي.. تعب في العينين وابتسامة يختلط فيها الحزن والشرود وبساطة ترتفع على التصنع فأغمض عيني وانا أتخيل صوتها ممتزجا بعبارات ريفية عذبة: (عمه الصبر حلو ، لاتأيسون). لكأن الفنانة الكبيرة قد اكتفت بالأحلام وتخففت من عقد المثقفين.. تقول كلمتها بحكمة ولا تكترث بزوبعة الإحكام.. تنظر العمة زكيه الى العالم الذي يحمل برودة المنطق وحرارة القلب.. بين الحزن على حلم تهاوى والاحتجاج الصارخ على مايكسر الحلم..فكانت تصر دوما على ان تكون في الموقف الصح وان تقول ما تؤمن به وان تمثل صحيحا وان تكون صورة لفنانة الشعب ومرآة العقل والإرادة تدافع عن المبادئ النقية في معركة الحرية دون ان تكترث لحسابات الربح والخسارة. تمزج بين الحلم والحياة.. تكون الحياة مصدر الهامها ويكون الحلم صوت المستقبل الواعد. في أيامها الأخيرة حملت زكية خليفة سنواتها التي تعدت الثمانين بعيدا في المنافي ترتجف اليد وتظل الذاكرة شابة تجول في شوارع بغداد تصطاد حكايات العراقيين في الأربعينيات وأحلامهم في الخمسينيات وقلقهم في الستينيات وضياعهم في السبعينيات وبؤسهم في الثمانينيات وتشردهم في التسعينيات ونشم رائحة الجنوب كلما طلعت علينا العمة زكية بقامتها الفارعة من على شاشة التلفزيون ونشم عبقها حين تعترف لصاحب البايسكلجبي (عيني صاحب الحكومة بعد ماتتأمن .. حكومة خرط) ونحس نبضها في ملامح زوجة الفراش المسحوقة التي وجدت في عمل زوجها عند الحكومة امتياز تتباهى به امام نساء المحلة .. في الوقت الذي كانت فيه زكية خليفة الإنسانة في خصام مع معظم الحكومات لأنها اكتشفت منذ البداية عكس رازقية زوجة الفراش بان الحكومات جميعها (خرط في خرط).

تنتمي زكية خليفة الى طائفة من الممثلين الأثيرين على قلب المشاهد.. ممثلة تتمتع بعبقرية لها طعم خاص سرعان ما تترك اثرا في النفس.. حين تشاهدها تشعر وكأنك قرأت كتابا ممتعا.. فعند هذه الفنانة قدرة عجيبة على تشرب الثقافة والحياة الكامنة خلف هذه الثقافة..فعندما تقف العمة على خشبة المسرح يكون عقلها وقلبها وأعصابها جزءاً من الأداء فتعطي كل ماعندها في البروفة والعرض المسرحي فتراها عندما تبكي على المسرح هي التي تبكي وعندما تضحك هي التي تضحك وعندما تبدع الشخصية لم تكن تتوارى خلفها وإنما تقف بالند منها.. كتب ستانسلافسكي مرة ان على الممثل ان يكون مخرجا لدوره وهو لم يقصد بالطبع ان يضع الممثل مكان المخرج بل اراد التحدث عن أهمية المبادرة عند الممثل وعن رؤيته الواسعة ودرجة مهارته وهكذا كانت زكيه خليفة الممثلة ذكية في معظم أدوارها ، ذكية تعرف ماذا تفعل وإنها لاتمثل الدور وحسب بل تقوم بتفسيره والتعبير عن وجهة نظرها تجاه الأشياء والشخصية التي تؤديها ويمكنك مشاهدتها منفردة لوحدها فتستمتع وكأنك تشاهد مسرحية بطلتها ممثلة واحدة ولكن بنفس الوقت تراها تخضع بحكمة وهدوء للعمل المسرحي الكلي..في المسرح والتلفزيون تتصرف العمة زكية وكأنها شخصية من شخصيات الماضي ،خارجة من حضن الأحلام بفوطة بغدادية او عصابة جنوبية وابتسامة محببة إلى النفس فتخطف قلوب وإبصار المتفرجين.

×××

تدور احداث مسرحية النخلة والجيران في إحياء بغداد الفقيرة وزمنها هو زمن الحرب العالمية الثانية وزمن الاحتلال الانكليزي للعراق في هذا الزمن الذي يعصف بالعالم ويبني ملامح عالم جديد تقف شخصيات النخلة والجيران على مسرح قاعة الخلد ببغداد عام ١٩٦٩ مكسورة تدور في حركة عاجزة.. تتلمس الأشياء ولاتدرك حركتها..

هناك نشاهد زوجة رزوقي الفراش (العمة زكية) تحاول ان تفرج عن إحزانها الدائمة بالتبجح بحياة العز التي يعيشها السيد المدير اللة يسلمه وبالخدمات التي تقدمها الحكومة اللة يسلمها لزوجها رزوقي، تعيش من تراكم الالم ولسعة الفقر لكنها تكابر فمادامت الحكومة سالمه فان حياتها ستظل سالمة ايضا.. مخلوقة جديرة بالرثاء محكومة ببيئة تتحرك على مسرح الفقر الكلي وهي تكشف عن فقر في الجسد والفكر والروح حين تقول (المدير الله يسلمه ميكدر يسوي أي شي الا يكلله لرزقي.. أي عيني ارزوقي احجايته ماشيه يم المدير اللة ايسلمه) وقد ذكرت لي العمة زكية وانا اجاذبها الحديث في احدى زوايا مسرح بغداد انها حين وقع عليها الاختيار لتمثيل هذه الشخصية كانت قد قرأت رواية غائب طعمة فرمان وتعرف غائب شخصيا ولكنها أثناء التدريبات راجعت الشخصية من جديد محاولة استيعاب شرح الروائي لتفاصيل الشخصية من اجل إيجاد توازن بين الشخصية في الرواية والايجاء التمثيلي على المسرح

×××

في مدينة هلامية مثل كل مدن الغربة..وفي غروب لايشبه غروب بغداد.. وفي لحظة تتداعى فيها الأمكنة والأزمنة أنهت العمة زكية أغنيتها الحزينة الشبيهة بأغنية ألتم وهي تلقي النظرة الأخيرة الى عالم شرس كله قسوة وأوجاع.. متسائلة أي الوطن..أين المنفى..والاهم أين الذين يتذكرون ان هناك فنانة اسمها زكية خليفة أصرت حتى اللحظة الأخيرة إن تشارك شعبها الامه وافراحة فقررت ان تدخل الانتخابات تحت قائمة اتحاد الشعب مخاطبة مواطنيها الذين لن ينسوها حتما: (اسمي زكية خليفة محمد الزيدي، مرشحة قائمة "اتحاد الشعب" التي تضم مجموعة كبيرة من المناضلين من شيوعيين وديمقراطيين يساريين ووطنيين، وشخصيات من كل الطوائف والأديان في مجتمعنا العراقي.

ومن خلال مسيرتي النضالية التي استغرقت ٦٠ عاما نذرتها بالكامل من اجل خدمة شعبي ووطني، ولم يثن عزيمتي الإرهاب والتعذيب والسجن والتشريد.

كنت اعتبر ما يقع علي من حيف هو شرف عظيم نذرت نفسي له، من اجل تحرير بلادي من الاستعمار والتبعية والحكم الإقطاعي الرجعي.

لقد عملت بجد، مع غيري من المناضلات العراقيات الباسلات، لخلاص نصف المجتمع، واعني المرأة العراقية، من القيود المكبلة بها، والتي حرمت طوال عقود من السنين من أبسط حقوقها الطبيعية، وهمش دورها، حتى على مستوى العائلة. واصلت النضال ولم يساورني اليأس او فقدان الأمل بحتمية انتصار إرا شعبي ونهوضه)، كان هذه آخر كلمات العمة زكية. فانتخبوها من اجل عراق أجمل وابسط وازهى.

عراقيات